لست من طين

رواية

لِسْتُ مِنْ طِينٍ

مُسَيَّد المومني

الطبعة الأولى
2020م

دار كفاءة المعرفة
طباعة • نشر • توزيع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2019/1/510)

813.03
المومني ، مُسَيّد محمود
لست من طين/ مُسَيّد محمود المومني.- عمان، دار كفاءة المعرفة للنشر والتوزيع ، 2019.
( ) ص
ر.إ: 2019/1/510
الواصفات: الروايات العربية // الأدب العربي// العصر الحديث

Isbn: 978-9923-755-24-2

Copyright ©

محفوظة جميع الحقوق

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. NO Part of this book may be reproduced, stored in aretrival system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

دار كفاءة المعرفة
طباعة • نشر • توزيع

kafaat.almaerifa kafaat.almaerifa@gmail.com
+962796803670 +962799291702 +962796914632

الإهداء

اخرج عن النص، اقلب طاولة اللغة، بعثر الكلمات، اجمع النقاط المتناثرة وابن لك منها منزلا . . . خالف توقعاتهم، ارسم نهاية مختلفة ولا تَمُتْ في نهاية الرواية.

الختام

زاد إلحاح الطارق على الباب

- I'm coming

تلبيتها الصوتية لم تفلح في منعه من استمراره الطرق فوق الباب تارة وعلى الجرس تارة أخرى، شعرت بقلبها ينقبض، هناك خطب ما.

لم يكن ساعي البريد كما اعتقدت، نظرت خارج الباب فرأت فوق العتبة مغلفا بني اللون، خرجت لتستطلع المرسل، لم يكن هناك أحد، تناولت المغلف وهمت بالولوج داخلا عندما سقط نظرها على فتاة على الرصيف المقابل تنظر إليها متفحصة، نادتها: أنتِ.

لم تكمل، ابتلعت ريقها: تيتيانا، همست، قلبها طار من صدرها، رفعت كفها تحييها: تيتيانا عزيزتي إلى أين تذهبين؟ ارجعي... ما زالت غرفتك بانتظارك.

نزلت الدرج مهرولة بقدر استطاعتها، والفتاة أمامها تبتعد كلما شعرت أنها قريبة، حتى اختفت كليا كأنها لم تكن.

توقفت لاهثة، أسندت جذعها على شجرة قريبة:

- قلبها ما زال مكسورا، ولكن هذا لا يمنعها من إلقاء التحية على الأقل، اشتاق لها كثيرا، البيت موحش دونها.
انتبهت للمغلف في يدها، قلّبته تبحث عن اسم المرسل، تيتيانا!!

فضت المغلّف بعصبية، لتطالع دفترا مكتوبا باللغة العربية، رغم محاولاتها الانسلاخ عن ماضيها إلا أن اللاوعي يبرز هويتها العربية التي تهرب منها.

أحتاج إلى شخص يجيد العربية كي يترجم لي المكتوب.

أغلقت الباب خلفها بهدوء، جلست على بدايات سلّم الطابق الثاني.

شعرت بأنّ هناك خطبًا ما، قرّبت الدّفتر من أنفها: اووه ابنتي، لماذا تركتني وحيدة!

لم يطل انتظار إليزابيث، أعاد لها المترجم الدّفتر، مر أسبوع ولم تذق خلاله طعم الراحة، فتك القلق بعظامها أكثر مما فعل الروماتيزم، أمام النافذة المطلة على الحديقة الصغيرة، والشاي أمامها كما اعتادت أن تفعل وتيتيانا بدأت القراءة.

«أمّي الغالية على قلبي، إليزابيث الجميلة، أعتذر لأنّي تركتك دون وداع، بعض ردود الأفعال لا تصبح مقبولة لو فسرتها، أرجو أن يصلكِ حبي الكبير رغم الواقع المفروض علينا حتى لو حاولنا تغييره، مع أن المكتوب في مجمله موجّه للأنا فيَّ إلّا أنكِ "أناي" رغم الفترة القصيرة التي عشتها في كنفك، الحياة لا تعدّ بالسّنوات، أمّي هي شعور بحثت عنه طويلا ولم أعثر عليه إلّا في حضنك وبين يديكِ».

تيتيانا/ سلمى التي أحبتك كثيراً.

خشيت أن تمحو الحروف بدموعها المتساقطة فوق الورق، ضمته لصدرها حتى استطاعت تمالك نفسها...

لا تبحثْ عن حلّ مشكلة خلقت لك من العدم، بل حاولْ أن تبحث عما يخفي العمر الهارب منك، بدلا من خوفك من اجتياح الألم الذي غزا قلبك فلم يبقِ ولم يذر.

فلسفة يستحيل تطبيقها.

أعلم، ولكن وبصفتي كائنٌ بشريٌّ يحاول الخروج من عنق الزّجاجة دون أن يتكرّر انزلاقي فيها، أعزّي نفسي بكثير من عبارات التحفيز الذاتي، لعلّها فور إزالة الغبار عن سطحها تحقق لي أمنياتي الثلاث التي تصبُّ كاملةً في تحقيق شعوري بالأمان.

الأذى، هذا الأخدود الذي يبدأ صغيراً وسط صدرك، ثم يأخذ بالاتساع حتى يصبح هوة تلتهمك للدّاخل لتجهز على جميع أوصالك، شعورا... أعصابا ثم جسدا يتهاوى كأنّما لم يكن لك يوما.

لستَ أنتَ، لم تكن يوما خائر القوى تحدّث نفسك عن نفسك، لتجبر قدميك على الوقوف، فترزح تحت وطأة أطنان الخذلان التي اكتشفت أنك تحملها في التوّ واللحظة.

ألم تحاول تذكر أوّل مرة أوحى لك وعيك أنك هنا... هنا يعني فوق الكرة الأرضية، بين أفراد يشكلون أسرتك من أب وأم وإخوة، في مجتمع بعاداته وتقاليده، صحيحة كانت أم خاطئة، في وطن من المفترض أنّه وطنك، حتى وإن لم تشعر بالانتماء له، غريب داخل غريب، كائنٌ بشريٌّ من الخارج، وفراغٌ لا حدود له من الدّاخل، ألم أخبركِ سابقا أنّ بداخلك هوة تبتلعك! لا... لا تفعلي، لا تحاولي فهم ما أقول، لأنكِ ستشعرين به عندما أخبرك قصّتي، وقصّتي تطول إن كنت مستمعة ضجرة، نعم مستمعة ولست قارئة، للحروف أرواح تنطق لا يسمعها إلا من يتقن الإنصات لقلبه، فأنصتي.

بدأت بحساب عمري عندما حل الخريف الثامن عشر، بعد أن تساقط الكثير مني في طريق نموّي، فوجدتّ أنني أعيش حياة طبيعية من وجهة نظري، غريبة غير مقبولة من وجهة نظرك، لا تلقي بالا لمخاطبتي لك بكل هذه الرّسمية، أنا الّتي كنت أجد فيكِ أذنـًا صاغية، رغم أنّكِ لم تسمعيني أنطق بحرف أمامك، تلمّست منكِ الصدق، ووجدتّ فيكِ ما يساعدني على فهم ما لم

أستطع استيعابه من صعاب الأمور، وتعقّد القضايا التي تطرأ عليّ في أيامي المتثاقلة.

أنقل لك من قعر الواقع، وأنا أجلس فوق سريري المقابل لنافذة تطلُّ على عمارة تمنع عني رؤية الأرض والسّماء معا، مع أنّي أقطن الطّابق الرّابع.

لا أملك القدرة على التحليق يا أنا، لم يقصّوا أجنحتي، بل استأصلوها من جذورها حتى لا تنمو، فعلوا ذلك دون قصد منهم، ولكن بتأثير مباشر من أنانيّتهم المفرطة، رغم ادّعائهم أنّ كلّ ما يفعلونه حرص منهم على مصلحتنا، ولأجلنا، فنحن أبناؤهم.

تأخّرت عليك بعض الوقت، أعذريني، ستفعلين حتما عندما تعلمين أنّي أجبت نداء أمّي لمساعدتها في تحضير الغداء لإخوتي ووالدي، تخيّلي... والدي بعد أعوام من طلاقه لأمّي عاد ليعيش معنا، هنا تحت سقف واحد، ابنة أخرى تسعد لجمع شتات عائلتها بعد سنوات من الخلافات الّتي طالت آثارها النفسية جميع الأطراف، ولكن والدتي ما زالت على ذمّة رجل آخر يأبى

منحها الإذن بالطّلاق، لم تلح عليه، أقصد أمّي لم تلح على ذلك الرّجل.

صحيح أنّ ما يحدث لا يصدّقه عقل، في دولة عربية إسلامية، أليس هنالك ما يمنع هذا المزيج العائليّ الشّاذ والمشّوه؟.

فكّرت كثيرا بطلب تدخل المحكمة الشرعيّة لفضّ زواج أمّي من أبي، أو اجتماعهما تحت سقف واحد كأزواج دون قسيمة تثبت ذلك، هوّنت على نفسي حينها، ذلك أنّ كثيراً من الزيجات في مجتمعي تمنح إذناً رسميّاً بوثيقة تحت مسمّى «زواج»، وتستمرّ فقط من أجل الأطفال، وعائلتي لا تختلف كثيراً عن تلك الحالات.

في مجتمعنا لا يؤخذ إلا بالظّاهر، والظّاهر كان يؤكد أنّ أمّي عادت إلى عصمة أبي بعد طلاقه إياها، بينما زواجها الآخر كان سراً، إذن... بيتنا عبارة عن مقبرة للأسرار.

لا تفعلي هذا... تفتحين فمك كالبلهاء، وتجحظين عينيك متفاجئة بزواج أمّي سراً من شابّ يصغرها بعشرين عاما، الموضوع الآن شائع، والزيجات من هذا النّوع تدوم أكثر من

كون الرّجل يزيد عن المرأة في السّن، والعكس أيضا بالنسبة للرّجال، من يملك منهم روح الشّباب وعنفوانه رغم كِبر سنّه، من يشعر الأنثى أنّها بكامل زهوها حتى وإن كانت في الأربعين من عمرها، يختار من تدقّ باب قلبه مهما كانت حالتها الاجتماعية، لن أشتّتك عن الموضوع الرئيسي، ولكنّ عقارب الساعة تدغدغ أجفان الفجر، ويجب أن أنام قبل الذّهاب إلى المدرسة.

لن تصبي جام غضبكِ عليّ لأني تأخرت عنكِ بضعة أسابيع، عندما تعلمين ما مررت به ستعذريني، ولربما تضمينني وتقبلين جبهتي، وتطلبين بدورك المغفرة مني، لأنه لم يعد هناك مبرر لغضبك.

لا تضحكي، فأنا مستاءة.

نعم، كثيرا... أشعر بالغصة تشق حلقي بسكين حاد لتنبت شجرة صبر شوكية كاملة في ذاك الشق.

مستاءة... كلمة بسيطة لا تناسب الحال، أنا موجوعة، ولا باب يفتح للخارج ليودع الوجع، جميعها تقوده للداخل، يسقط نقاطا

من نار تذيب روحي حتى أصبحت غربالا يكشف هشاشتي الداخلية، رغم ما أدعي من صلابة.

أوَ لستُ إنسانة تصاب بالضعف أحيانا!

لماذا ينكرون حقنا في الآدمية، من اعتاد منا الصلابة والصمود كرد فعل على كارثة، أو جموع أحمال أرهقتنا حتى رزحنا تحت حملها الثقيل، فانسابت دموعنا مدرارة فوق وجناتنا، أتعلمين ماذا يفعلون؟ يتهكمون على ذرفنا الدموع، وكأن المطلوب منا أن نكون جلاميد صخور! لهذا اخترت الوحدة رفيقا، فالوحدة وحدها تجيد الصمت في حضرة الدموع.

عبود الذي عاد من الكويت مع أهله بعد أن اجتاحت القوات العراقية أراضي الكويت واحتلتها بيوم واحد، أتصدقين ذلك؟.

لا ليست الفترة الزمنية البسيطة لاحتلال دولة لدولة أخرى، ولكن كيف يمكن لدولة عربية أن تهاجم دولة عربية أخرى لتضمها داخل حدودها، بصرف النظر عن الدوافع، لن أدخل بتحليلات سياسية، فأنا لا أفقه شيئا، ولا رغبة عندي بالضياع في دوامة السياسة، يكفيني ضياعي في دوامة عائلتي، لنعود لقصتي

مع عبود، فقد تبعني طوال الطريق من المدرسة لمنزلنا، ومن منزلنا للمدرسة طوال الفصول الدراسية.

يكبرني بعامين، في سنته الأولى بجامعة اليرموك، كان يرمي أمامي ورقة دوّن رقم هاتف منزلهم عليها، فألتقطها أمام عينيه، ثم أرميها في أقرب حاوية للقمامة، ليس دلالا، وإنما لأنه لا يعجبني، ليس بالشاب الذي أتخيل أن تجمعني علاقة عاطفية به، فهو ليس بالطويل، ولا عريض المنكبين، ولا يمتلك عيونا ملونة، ولا شفاها ممتلئة، ولا حتى فكا أقرب للتربيع منه للدائري، بالمختصر... لا يشبه الممثل الأمريكي ميل جيبسون الذي أتابع أفلامه بشغف على قناة الأردن الثانية كلما علمت أنهم سيبثون له فيلما، حتى وإن كان متوسط الطول، لا تتهميني بقلة العقل، نحن في هذا العمر يهمنا الشكل أكثر من المضمون.

يحسب له حبه لي إن كان هدفه الوصول إلى قلبي، أكاد أجزم أنه في رهان مع أصدقائه ليرضي غرور الرجل عنده بتحطيم غرور الأنثى عندي، لا أتجنى عليه، فأغلب الشبان في هذا السن يعانون مرض لفت انتباه مبكر لرجولتهم.

لا تستعجليني بالإفصاح عما أخفي، فأنا أشعر بالندم لأني بدأت في الموضوع من أساسه، وكلما توغلت في التفاصيل اجتاحتني نوبات من الحرج، طيب... سأدخل في صلب النزوة التي حشرت نفسي بها، لم أمش إليها مسلوبة الإرادة، فأنتِ تعلمين أني مسؤولة عن كل حرف أتفوه به... فكيف لا اسأل عن أفعالي!

سايرته في حركات المراهقين، وبدافع الفضول الذي قادتني إليه حكايا الطالبات في صفي حول مغامراتهن مع شباب يكبرونهن سنا، أو يصغرونهن، قررت أن ألتقيه في بستان قريب من المدرسة.

طبعا لا، لم يكن اللقاء بمحض محادثة انبثق عنها اتفاق، فقد تحدثت معه لمدة أسبوع، كنت أطلبه على الهاتف كلما وجدت نفسي لوحدي في المنزل، فأهله يقيمون في السعودية، ولا أحد يسكن الشقة إلا هو، وهذا كان اتفاقا بيننا أن لا يطلبني هو.

نيتكِ سيئة... لم يصل بي الفضول لزيارته في شقته، أتعلمين... لم تخطر أبدا على بالي، كل ما رغبت به أن أجرب شعور اللقاءات السرية، وطعم النشوة بسرقات لحظات معه، على ظن مني أني أحبه... أجل، أجل أنا عملية رغم صغر سني، ولكن هل تتوقعين مني المضي في حياتي دون تجربة هذا الشعور!

فاشلة أنتِ في فهمي...

تخيلي، لم ألتفت خوفا من أن يراني أحد، كان هو شديد القلق، يتحدث بهمس وكأننا في وسط حشد يلقون آذانهم لحديثنا، يحاول الابتعاد عني كلما اقتربت منه، وهذا شجعني على إخافته، راقني جدا شعوري بالسيطرة عليه، وكأننا تبادلنا الأجناس، اقتربت منه حتى انحشر بيني وبين شجرة كانت خلفه، حرضتني نفسي بأن أقبّله، وهو بالمقابل سمح لنفسه بالاقتراب مني لينال مكافأة سعيه المتواصل لأن أكون له، ملكه وحده، واعتقاده التام أنه يستحق لمسي، أو حتى ترك أي أثر منه على جسدي، انتفضت عندما أصبح وجهه ملاصقا لوجهي، تراجعت للخلف بقفزة واحدة وقلت له: في أحلامك.

ضحكت أمام بلاهة نظراته بصوت مزلزل، حذا به لرجائي بخفض صوتي لئلا ينتبه علينا أحد فيخبر الجميع، فأنا كما قال كالزجاج، إن تداول الناس قصة لقائي به لن يتقدم لخطبتي أحد.

وإن لم تكن عندي رغبة في الزواج من الأساس، ولا رغبة لدي في الحب، قناعتي المطلقة بعد هذا اللقاء أن لا سحر في الحب، ولن يكون.

لماذا أنا مستاءة إذن؟ معكِ حق!

لا أعرف الإجابة الشافية، ولكن أظن أني منحت هذا الكائن أكبر من حجمه عندما تبادلت حديثا أوهمه أني حبيبته، فما زال يلاحقني إلى هذه اللحظة، أشاهده يقف أمام منزلي كلما نزلت للشارع، وبعد خروجي من المدرسة، سمعت من الجيران أنه مهدد بالفصل من الجامعة، وتحت تهديد من أهله أن يعود للحياة والعمل مع والده في السعودية، لا طبعا... لستُ السبب، فهو المسؤول عن حياته وتفاصيلها كاملة، ولا عذر لضعف شخصيته، لماذا اتهم أنني تلاعبت بمشاعره، ولو كان العكس لاتهمت أنني أستحق ما فعله بي، لأنني من فتح له باب اللعب بمشاعري! مجتمع لا يرى إلا ما يناسبه.

حنين أيضا وجهت لي كثيرا من اللوم على فعلتي هذه، قالت لي بالحرف: بما أنه لا مشاعر في قلبك تجاهه لماذا أوهمته بحبك؟.

الحق كله معكما، وأعلم مسبقا أنه ما كان يتوجب علي فعل ذلك، ولكني كنت بحاجة إلى التجربة، وكان هو متوفر ليقدم لي هذه الخدمة عن طيب خاطر.

من هي حنين؟!

صديقتي التي تجاورني في مقعد الصف، هادئة، رزينة، ذكية بشكل لافت، تسمع أكثر مما تتكلم، لا صديقة لها سواي، لأنها لا تثق بأحد، قصتها عجيبة أكثر من قصتي، أعلم أنني أخبرتك أني أراها من وجهة نظري عادية، ولكن عندما أكمل لك روايتها ستحكمين بنفسك.

مات والدها وهي في سن الرابعة من عمرها، لها أخوان من زوج أمها، أحدهم في سن العاشرة، والآخر في الثامنة، تعرض والدها لحادث في طريق عودته للمنزل بعد أسبوع غياب قضاه بمناوبة بالفرقة العسكرية في وادي السير بعمان، لا تتذكره إلا خيالا كما أخبرتني، ولأن والدتها صغيرة، ولا تستطيع العودة إلى منزل أهلها مع طفلة بسبب عوزهم وضيق حالهم، وافقت على عرض حماتها الزواج من أخ زوجها الذي يصغرها بأربعة أعوام.

لا أمزح، صدقيني، أصلا لم تسمعي الجزء المهم من قصتها، دعيني أكمل.

ليس الآن، والدتي تناديني، يارب سترك، أظن أن هناك مصيبة عائلية أخرى تريد إطلاعي عليها.

نعم مصيبة عائلية، حاستي السادسة لا تخيب أبدا، أخي خالد يكبرني بعامين، على علاقة عاطفية بصديقة والدتي من الجزائر، صديقتها... يعني أنها بنفس عمرها، مضحك مبكٍ ما يحدث، عندما قرأت أن الدورة الحياتية عبارة عن حلقة تدور بأحداثها كل فترة زمنية معينة على عائلة ما بنفس الأحداث مع اختلاف بسيط في المعطيات لم أصدق، اعتبرتها معلومة سخيفة، والآن، ماذا الآن؟!

أنا مؤمنة بها بالكامل، ألم أخبرك أن أمي تزوجت بالسر عن أهلها بابن جيرانهم قديما، وعندما علم أخوه الكبير الذي رباه بمقام والده جن جنونه، وهدد والدتي بالفضيحة، ومحاربتها في المجتمع لأنه صاحب مكانة ونفوذ، حتى أنه حادثها هاتفيا وأسمعها من الشتائم والوعيد ما لم تتوقع أن تتلقاه يوما من عدوها، كما قطعت صديقتها الغالية وهي أخت أحمد زوج أمي علاقتها بأمي، واتهمتها بخيانة صداقتهما والتغرير بأحمد، لا أفهم كيف تغرر أمي بشاب في العشرين من عمره؟!.

ألا يعتبر في تصنيف الرجال رجلا بالغا عاقلا راشدا؟!.

نحن في التسعينيات من القرن العشرين، وما زالوا يلصقون أي خطأ يقع به الرجل بالمرأة.

خالد ثار في وجه أمي عندما طالبته بإنهاء العلاقة مع صديقتها زينة، هددته بطرده من المنزل وحرمانه من المدرسة والمصروف.

لا أعلم ماذا قال لها بالضبط، فقد روت لي الحادثة وهي تجهش بالبكاء، ما فهمته أنه عايرها بطلاقها من والدي، وتخليها عنا لسنوات عديدة لأجل إشباع غرور الأنثى، والتصابي بزواجها من أحمد، تخيلي أنه اتهمها بانحلال أخلاقها، هي أمه، حتى وإن كانت كذلك، لا يجوز أن يرمي مثل هذه الصفات المشينة بوجهها.

أتعتقدين فعلا أن أمي تعاني من انحلال أخلاقي؟ لكنها تزوجته، ولم تقم معه علاقة غير شرعية، حتى وإن كان زواجهما بالسر، فهما يملكان عقدا شرعيا سجل في المحكمة الشرعية.

لا أعتقد أنها ارتكبت خطأ، لم تكفر عندما تبعت مشاعرها بأقل الخسائر، لا... لا أبرر لها، لكنها الحقيقة.

مشوشة أنا بما يخص هذا الموضوع بالذات، أحيانا أفكر أنه ما كان يجب عليها الطلاق، وكان عليها أن تصبر أكثر، خاصة أن والدي كان يحبها، رغم الخلافات الكبيرة بينهما، وتخليه عن مصروفنا، ولعب دور المحتاج للمساعدة المادية دائما، ومساندتها له في مصروف المنزل، فقد كان يعود إليها نادما معتذرا، واعدا أن تقصيره لن يتكرر، وفي كل مرة كان يتمادى أكثر، حتى لم يعد عائدها من بيع مستحضرات التجميل للنساء في المدارس والمؤسسات الحكومية يجدي نفعا، فاقتصاد الأردن كما باقي دول العالم متهاوٍ، وصبرها عليه أيضا.

من ناحية أخرى، أراها فعلت الصواب بتركه، لا... هي لم تتخلَ عنا، والدي من اقتلعنا من حضنها ليجبرها على الرجوع إليه، وقد نجح نوعا ما في تحقيق رغبته، ولم يقصر مطلقا في دوره كأب لنا، بالعكس... كان ولأول مرة يتحمل مسؤولية أطفاله وحده، لعب دور الأم والأب معا، ولكن بالمقابل لم نكن نعلم أنه يستخدمنا وسيلة لابتزاز أمي.

أود أن أخبركِ، كي لا يتكرر موقف غضبك السابق، أني سأغيب بعض الوقت حتى أنهي امتحانات الثانوية العامة، لا أشعر أني أكبر، فقدت الكثير من قطع البازل[1] لتشكيل لوحة طفولتي كاملة، وجدت بعضها في ذاكرتي، وأخرى ما زالت مفقودة، ولا أنوي بذل المزيد من المجهود العقلي للعثور على أخرى، تقريبا أنا ألمس أهم الأحداث بأصابع حالي... وهذا يكفي.

ودّعتُ حنين اليوم، بكيت كثيرا... كما لم أفعل في طفولتي المبكرة، لا أعطي القضية أكبر من حجمها...

تعقيبك المستفز، وطلبك مني أن أهدأ لا يساعدني، ولا يُسرِّي عني، بل يشعل نار الحنق في أعصابي، دعيني عندما أكون في حالة غليان أفرغ جام غضبي بأية طريقة تريحني، وشاركيني حتى أهدأ.

خشيت أن تحين لحظة الفراق بيننا، انتهت الامتحانات، وهذا يعني أننا سننتقل إلى مرحلة النضج، يضحكني أن البعض يقرن تقدم السن بالنضج!

(1) هي أحجية صور مقطعة تركيبية، تتطلب تركيب عدد كبيرة من القطع الصغيرة من أجل تشكيل صورة كبيرة، غالبًا لا تحوي أي فراغات.

أتعلمين ما حنين؟

هي من تسمعني دون أن أنطق، من أحدثها بأدق تفاصيل حياتي حتى المخجل منها ولا أشعر بالحرج، هي من لا تجاملني بأخطائي، من أتحدث لها دون انقطاع ولا تطلب مني الصمت، حنين من تنسى سري فور انتهائي من البوح لها به، من بكيت بين يديها فمسحت على ظهري، وأخبرتني بأن ما يبكيني سيمضي إلى غير رجعة، أعلم أنها تكذب، وتعلم أنني أعلم، حنين بالمختصر... ضميري الحي.

متأثرة جدا بالانفصال المكاني بيني وبينها، لم يقتصر انتقالها لمدينة أخرى، بل انتقلت إلى أمريكا، هوس الهجرة يسيطر على العائلات الأردنية بشكل غريب.

هذا صحيح... لم أكمل لكِ قصة حنين، اسمعي إذن ولا تقرأي، هذا كان الاتفاق منذ بدأت الكتابة لك.

رزقت والدة حنين بمولودين ذكرين من زوجها الثاني، مع حنين أصبح العدد ثلاثة، المواليد الذكور لم يشفعوا لوالدتها عند حماتها، صبت الحماة سخطها فوق رأسها من فقدان ابنها البكر،

وتحرض زوجها ليضربها، والتمادي في معاملتها أسوأ معاملة، و: «لقد سرقتِ مني أبنائي الوحيدين، مات أحدهم، وستجهزين على الآخر». عبارة ترددها حنين عن لسان جدتها كلما شكت لي أوضاع بيتهم المدمرة لأعصابها وشخصيتها.

لم تكد تبدأ الامتحانات حتى طلق «عمها» والدتها، وطردهما خارج المنزل بعد أن منع والدتها من أخذ أبنائها منه، ترك لها حنين، هذا ما دفع والدتها للهجرة عند إخوانها.

سألتها: لماذا وافقت والدتها بالزواج ثانية من نفس العائلة، رغم ما عانته من مشاكل مع حماتها منذ البداية، أخبرتني بأن جدها أصر على أن أتربى بين عائلة والدي، ولعمي الأولوية بتربيتي، وكأنه تكلف أن ينتبه لوجودي يوما! صبّ جل همه في إهانتها.

تغرب شمس هذا اليوم، أراقبها تسحب همتي من جسدي ظلا أبيض يغذي شبح غياب حنين، أشعر أن جزءا جديدا مني قد مات .

سأتغيب فترة من الزمن حتى أسترجع ما ضاع مني إن تمكنت من ذلك، لن أعود قريبا، هذا ما أنا متيقنة منه.

- أي وحدة عانيتِ! لم يكن غريبا انزوائك وحديثك القليل، برمجتكِ الداخلية على عدم الإفضاء بمشاعرك دفعتكِ للاحتفاظ بمسافة أمان بينك وبين أي شخص، حاولتِ خلق تلك المسافة بيننا، لكني مذ رأيتك مكسورة حزينة مع البوليس عند باب الشقة جرفني الحنان لاحتوائك، كنتِ كهرة تخلى عنها صاحبها في شارع موحش، اعتقدت حينها لو أنني رفضتُ إيواءك، فأي الأيادي ستتسابق لتسخير هذا الكنز لأهدافه، لم أستطع التخلي عنك، اعتقدت في البداية أنني أحافظ عليكِ، وأنكِ تعويض الرب لي عن ترك ابني، هجر ابني جورج لي، لكنكِ كنتِ حنونة رغم ما ادعيته من قسوة، راعيتني كما تراعي الابنة أمها.

في أي بقاع الأرض أنتِ! لو أعلم لطرت إليك رغم ما أعاني من أمراض لأشم رائحتك، وأطمئن إلى أنكِ بخير.

وضعت الأوراق جانبا، الوقت متأخر، ولم تتناول دواءها حتى الآن.

تناولت حقيبتها وتوجهت لمتجر بيع الورود، ابتاعت زهرة «الأوركيد» المفضلة عند تيتانيا، بيضاء ناصعة كـ«قلبك» عزيزتي.

ابتسمت عندما نظرت للمحيط حولها، تغلبت على رُهاب الخلاء يا عزيزتي، بعد أن شاهدت نسختك من مفاتيح البيت، علمت أنك تغادرين إلى غير رجعه، لم أستوعب أنكِ ستهجرينني مثلما فعل جورج، هرولت إلى الرصيف، وجدت أني أقف بمواجهة الشارع ولا أثر لكِ، كنت قد غادرتِ من ساعات على ما أظن، لم أعد أتعجب إذا ابتعد القريب وتخلى عنكِ، واقترب البعيد وتمسك بك، إن ما يراه كل منهما فيكِ ويكتشفه مختلف، يعتمد على وجهة الأسس الراسخة في فكره، وهذا لا يعني أن نظرتهما قد تكون صحيحة أو خاطئة، دعي عنك التحليل وخذي كل فرد كما هو دون تزويق، سيصبح أكثر جمالا رغم قبحه، أو يصبح أكثر قبحا رغم جماله، أفعاله من تحكم عليه يا عزيزتي، قلبي تعب تيتانيا، أفكر مذ رحلتِ كم ستتحملين من الأيام بعيدة عني!

تيتانيا/ الأردن

محاولات النسيان مجهود زائد يفرض كرها على كافة أجزاء الجسد، العناد في إجبار الذكريات على حمل حقيبتها والتلاشي كأنها لم تكن... مازوشية[1] نمارسها بكل إصرار مبررين ذلك بسعينا خلف تحقيق السلام الداخلي الذي يستحيل إلى حرب نفسية بين ما نحاول فعله، وبين فرض النتائج القاسية علينا.

فأنتِ تجبرين كل خلية في جسدك على تكبد عناء محو ما علق بذاكرتك، سواء تعمدت أنت إلصاقه، أو تعلق هو بتلابيبك، وسواء نجح العلماء في إيجاد أية وسيلة لمحو الذكريات المزعجة من منطقة الحُصين، بإعادة توزيع حمض «غاما- أمينوبوتيريك» في أجزاء الدماغ المختلفة بخفض كثافة انتقال الإشارات بين

(1) المازوشية، أو المازوخية، أو المازوكية: هي اضطراب في الشخصية يؤدي إلى سلوك بوعي أو بدون وعي يعرض صاحبه للفشل، أو الضياع، أو التحقير والإهانة، أو الإيذاء اللفظي أو البدني، ويكرر الشخص هذا السلوك بشكل شبه قهري لما يجد فيه من متعة خفية على الرغم من شكواه الظاهرية. والتسمية نسبة إلى الروائي النمساوي «ليوبولد فون ساشر ناسوش» لأن أبطال رواياته كانوا يستمتعون بالألم الجسدي.

الخلايا العصبية للتحكم بذكرياتنا[1]، أم لم يتمكنوا، أتدركين مدى الكارثة التي تنتظرنا، حتى ذكرياتنا باتت مهددة بالمحو!

وبما أنني أملك الخيار، فلا رغبة عندي بقصقصة ذكرياتي لتناسب بناء شخصية لا ركائز تدعمها، كيف لي أن أعلم أن ما أمر به حدث سعيد إن كنت سأمحو الطعم المر الذي تجرعته خلال حياتي! وإن كانت بعض الصدمات تولد فصاما في الشخصية فأنا موافقة، شرط أن لا أكمل مسيري وأنا مجزأة.

آآه... لم أخبركِ أنني قبلت في تخصص اللغات الحديثة بجامعة اليرموك، كنت قد نويت التحويل إلى تخصص الصحافة والإعلام، ولكن توفر لي ما نسميه في نظام الدراسة الجامعية (التفريع) لتخصص آخر، هذا أروع ما يمكنك فعله، دراسة تخصصين في نفس فترة الدراسة الجامعية.

أعود للمنزل في وقت متأخر من النهار، ما زلت أحيا بين عائلة جل هم كل فرد منها مصلحته فقط، وأنا فرد من هذه العائلة، ولن

(1) تجربة قامت بها مجموعة من الباحثين من جامعة كامبريدج بولاية يوتا، وجامعة غرناطة للتوصل لآلية تساعد على التخلص من الذكريات غير المرغوب بها. المصدر: كومسومولسكايا برافدا.

أدّعي المثالية، فمنذ بدأت دراستي الجامعية وأنا أرتب كل خطوة تصب في مصلحتي ومستقبلي دون إطلاع أحد عليها، حنين فقط من تعلم، فأنا أراسلها بالبريد كلما ضج بي الشوق إليها، أزور صناديق البريد في مبنى العمادة بداية كل أسبوع، وأخشى أن لا أجد مكتوبا منها، ذلك أن الرسالة تأخذ ثلاثة أسابيع حتى تصل، ومثلها حتى تعود، في حال افترضنا أنها سترد مباشرة، يعني مدة شهر وأسبوعان، تنقضي خلالها الكثير من الأحداث ويحل غيرها، وهكذا لم تنقطع المكاتيب بيننا لمدة طويلة.

تقطن الآن في ولاية فلوريدا، والدتها تعمل في مدرسة إسلامية للجاليات العربية، وحنين في جامعة ولاية فلوريدا في مدينة تالاهاسي تخصص قانون، أرسلت لها قائلة: قانون! هل أنتِ بكامل قواكِ العقلية؟! هذا تخصص لا يناسب شخصيتك اللطيفة.. الخجولة، تحتاجين إلى تخصص يبعدك عن قاعات تعج بالمجرمين والشرطة وهيئات المحلفين، هل فكرتِ بعلم جديد اسمه علم الحاسوب، أعتقد أن مجاله في تحصيل وظيفة أفضل، وستبقين بعيدة عن التعامل المباشر مع البشر.

إجابتها فاقت توقعاتي، لوهلة ظننت أن من أرسل الرسالة ليست هي:

ألا تعتقدين أنه حان الوقت لتحطيم الضعف، ورؤية العالم بمنظور القوة والسطوة إن تحتم ذلك، عمي تزوج من أخرى، ووالدتي فقدت عقلها بالمطلق، ظننت أنها نسيت إخواني، بكاؤها الهستيري أفقدني رشدي، شعرت بالسخط على مجتمعنا الذي زرع في المرأة الخنوع والاستسلام للظلم، لم نرب لنحارب، تمت برمجتنا بالكامل لنستسلم، لم أخلق ضعيفة، لذا لن أستسلم.

أول رسالة استلمتها من حنين فاحت برائحة الاندهاش والفرح، أعترف أنني شعرت بالغصة وأنا أتابع القراءة، ظننت حينها أنها ستنسى سلمى، مرآتها كما كانت تطلق عليّ، ولكنها لم تفعل، فكل رسالة تلقيتها منها فيما بعد حملت لي شوقها للوطن، الوطن الذي يذكرها به دفء شال جدتها لوالدتها المتوفاة، وهو ما حملته معها حول رقبتها في سفرها حتى لا تختنق بالرحيل.

وصفت لي شارع المدينة قائلة: لو أنكِ هنا معي، نسير في شوارع هذه المدينة، أتذكرين تعليقاتك على سوء نظافة الشوارع في

إربد، وعندما حاولت منعك من دخول محل تجاري يعرض بضاعته فوق الرصيف، مما أجبرنا النزول للشارع لنكمل مسيرنا، وهذا ما لم يعجبكِ، وصرحتِ به لصاحب المحل الذي طلب منك الخروج من محله، ووصفكِ بقليلة الأدب، مع أنني أصبت يومها بالذعر عندما قمتِ برمي كل ما كان فوق الرصيف على الشارع لتأديبه على شتمه لكِ، وهذا ما دفعه للحاق بِنا، ركضنا كما لم نركض يوما، ولمسافة بعيدة حتى استطعنا الاختباء خلف سور بيت مهجور، وتمكّنا من التقاط أنفاسنا، صرخت بوجهك: هل أنت مجنونة... وانفجرنا ضحكا، هنا يا سلمى الرصيف للمارة، لا تعترضنا إلا أشجار زرعت بعناية لا تؤثر على مسيرك، الأرصفة بحجارة مصفوفة تعتليها أوراق الخريف، لا أكياس بلاستيكية سوداء، لا روائح كريهة.

بيوتها بمداخل تحفها الزهور، وبناياتها شاهقة الارتفاع، لكنكِ لا تصطدمين بسوء التخطيط، لا بيت صغير إلى جانب عمارة، كل حي يميزه طابع حسب تصنيف منطقته، تخيلي سلمى لو أننا نبني وطننا بدلا من أن نهدمه!

ومع هذا أشتاق إلى إربد وشوارعها، إلى بيوتها القديمة، محلات العطارة في شارع الهاشمي، وإلى سوق البخارية، أشتاق أكثر للطرقات التي كنا نسلكها حتى نتأخر في الوصول للمنزل، أشتاق لكِ سلمى... فأنتِ تمثلين جمال إربد وطيبتها.

قبل يومين مررت من جانب جوقة موسيقية تعزف على أحد الأرصفة، اعتقدت أنها مجموعة هواة، ولكن بعد أن كان المارة يرمون لهم بقطع النقود في وعاء معدني عرفت أنها طريقتهم في التسول، حتى طريقتهم في التسول لا ذل فيها.

شاطئ واسع يطل على المحيط الأطلسي، يمارسون هنا التزلج على الأمواج، لا يشبه أبدا ما كنا نمارسه في حارتنا فوق (جلن) البلاستيك حيث كنا نتزلج من أعلى الشارع لأسفله، مع أني على يقين أنه ممتع أكثر مما يقومون به، ولكني أراهم رغم المجهود والمخاطرة يعودون وكلهم حيوية، أتظنين أنه يمكنني التزلج يوما ما فوق الأمواج؟

مررت قرب نهر سانت جونز، وهو أطول نهر في أمريكا، يطلقون عليه أيضا النهر الكسول، اعتقدت في البداية أنهم يمازحونني، ولكن هناك تفسير علمي يقول بأن المياه التي تغذيه بطيئة التدفق.

البحيرات هنا حكاية بحالها، لو أنكِ شاهدتها لاعتقدتِ أنها بحارا، ذلك أنها تستقبل سفنا بخارية.

في يوم جلست أتأمل جمال الطبيعة، أخذني من نفسي لساعات حتى حل عليّ المساء دون أن أشعر بمرور الوقت، لم يعجب أمي تأخري، فواجهتني بغضب عند دخولي لأحد ممرات المنزل: لن أسمح لكِ بالتمادي والتأخر حتى أتفاجأ بكِ تعرفينني على (boyfriend)، هل تفهمين!

مُنعت عن التأخير منذ ذلك اليوم، التزمت لأني رأيت خوفها عليّ في عينيها، أمي تشرب السجائر الآن، هل أخبرتكِ بذلك؟ لا أعتقد أني فعلت، فأنا لا أحب أن يعرف الناس مدى الإحباط الذي وصلت إليه، كنت ألومكِ داخليا عندما تبدأين الشكوى مما آلت إليه حال والدتك، لكنهن ضعيفات... أضعف مما يتصورن، ونتصور.

ثم بدأت بوادر الانسجام عندما كتبت لي مرة: أليس غريبا أن تشعري في بلاد بعيدة عن مسقط رأسك آلاف الأميال بأنكِ في وطنك، وبين أهلك، بينما كنتِ في وطنك غريبة لا تجدين ما ضاع منك؟! نعم وجدت نفسي هنا.

شعرت بها بعيدة لأول مرة منذ سفرها، وكأنها تذوب ببطء في ذاك المجتمع، وتلك البلاد، تتقمص الغربة بكامل قسوتها، ليست غربتها، بل غربتي.

بدأت أفقد الدعائم التي تسند شخصيتي، لا أهل، لا صديقة حتى في الجامعة، كأني حرصت لا شعوريا أن أبقى بعيدة وحيدة لا شأن لي بكسب الأصدقاء حتى لا أفقدهم، فعمدت على قضاء الكثير من الوقت بين الكتب في مكتبة الجامعة. ولكن حذاري من حزنك عليّ، فحالي ليس بذاك السوء الذي يصلك من خلال ما أخبرك به، أشعر بسلام داخلي، وشعور بالهدوء، لا أظن، لا ليس الهدوء الذي يسبق العاصفة، أرجو ذلك.

أنظر حولي في مكان يسمى منزلا، قاطنوه «ريبوتات» متحركة، أمي التي أصبحت لا تغادر أريكتها بشعرها المنكوش ووجهها الشاحب وسيجارة بين أصابعها، لا أذكر أنها طوّقتني يوما بقدر تطويق أصابعها لسيجارتها، أخشى أن يموت أبي كل يوم ألف مرة مراقبا بؤسها، محاولا انتشالها من حالتها، ما عاد أحدهما يهتم بنا، صرنا على الهامش، تسلسل فقد غريب... أمي فقدت

أحمد، وأبي فقد أمي، ونحن فقدنا الدفء، الاحتواء، الأمان، فقدنا بيتنا، مات والديّ وهما على قيد الحياة، أية قسوة هذه؟!.

المكتبة صديقتي الصامتة، نعم أنتِ صديقتي أيضا، ولكن في علم النفس يجب أن لا أترك الأنا تسيطر عليّ، لهذا أكتب لكِ، كي أبقى في انسجام معك، وحتى لا أفقد بوصلتي واتصالي مع العالم، كتب علم النفس تستهويني، لا أعلم السبب، وخاصة أنني قرأت روايات عبير كلها تقريبا، كنت أبدأ برواية في أول المساء وأنتهي منها عند الفجر، بعد أن أنهي ثلاث روايات على الأقل، أذكر أن خلافا اندلع بين أمي وأبي، كان من أعنف خلافاتهما، حتى أن أبي شتم أمي ورفع يده عليها، لا أبدا... أبي رجل متزن هادئ رغم الضغوط التي يرزح تحت وطأتها، لا يعتبر أن ضرب المرأة من صفات الرجولة، ولكن أمي تفننت باستفزازه.

بدأت مباراة مهمة انتظرها لأيام، ولأن أحد اللاعبين استفزه لتفويته تسديدة مهمة.. شتمه، رأيتها تتأمله بعمق وحنق ثم غادرت مقعدها متوجهة إلى الهاتف، لم يلتفت أبي إليها إلا بعد أن سمعها تهمس لأحمد بكلمات حب ملتهبة، صب كل اهتمامه

على المكالمة: أحبك ولن أحب غيرك، جسدي هنا... لكن روحي تطوقك وتقبلك.

ثار، أرغى وأزبد، أمسك الهاتف من يدها، انتزع السلك الذي يصل الهاتف بالحائط ورماه قرب رأسها ليسقط قريبا من قدميها، لم تجفل، لم تبكي، كأن عصا سحرية مست جسدها لتبقيها جامدة طوال فترة صراخه وهديره: خائنة لا تملكين من الأخلاق ذرة، تتحدثين معه أمامي بكل وقاحة، لن أسمح لكِ التأثير على أخلاق أبنائي بـ....

صرختها قنبلة انفجرت في وجهه: لا تتحدث عن شيء لا تملكه، الشرف!

ماذا تملك منه؟ هاه أخبرني؟ أين الشرف عندما قمت بابتزازي بأبنائي، وأخبرت أهل أحمد، انتزعتني من زوجي لأعيش معك تحت سقف واحد دون رابط شرعي؟ امتقع وجهه، رفع يده في وجهها، رأيت الدموع تملأ عينيه... لم أستطع استراق السمع من خلف باب غرفتي أكثر من هذا، أغلقت الباب، ووضعت سماعات المسجلة في أذني وبدأت رحلتي مع عبير، لا أعلم ولا يهمني إن قتلا بعضهما!

لا مبالاة مريحة إن طلبتِ رأيي بما أمر به، حتى لو خالفتني الرأي.

أما بخصوص روايات عبير، فمهما كان رأي النقاد بأنها عملت على تخريب أخلاق جيل كان طوع يدي الخراب أصلا، إلا أنها كانت جسرا لي منه عبرت إلى عالم المشاعر التي لم أنعم بها على أرض الواقع، أحببت حب الروايات، شعور نعبر عنه ولا نحصل عليه، يتملكنا ولا نملكه، كاتب يصفه لكِ ولا يملك منه ذرة.

إليزابيث/ بريطانيا

قاطعتها الدموع المنسابة فوق الورق، تنهدت: لماذا لم تصارحيني بكل هذا البؤس الذي عانيته، لا أستطيع تخيل طفلة لطيفة مثلك تمر بظروف قاهرة ولا تبدي أي رد فعل مدمر، الحفاظ على نفسك بعيدا عن ارتكاب الأخطاء والانحراف كان جبارا.

أخذتها الذاكرة إلى جورج، تنهدت، لم يعان أية طفولة بائسة، تعلقه بوالده، وفقدانه إياه فجأة خلف عنده رد فعل عكسي، سخطه عليّ لم يكن مبررا، فلستُ من يقبض الأرواح، إنه الرب، شاء أن ينهي حياته في ذلك الحادث المشؤوم، حتى وإن كنت من طلب منه شراء بعض السلع من المتجر، هل كنت أعلم أن حريقا سيلتهم المتجر بمن فيه!

لم يمضِ الجناز حتى تخلى عني دون رحمة، بعد أن كال لي الكثير من اللوم بنبرة حادة ملئها السخط.

سلمى/ الأردن

أخطئ بحق نفسي كثيرا، إن كان إقدامي للتعرف على بعض الصديقات خطأ، أشعر بالوحدة كثيرا رغم أني صاحبة القرار في عدم السماح لأي شخص التقرب مني بهدف الصداقة، أو لغيره، شبابا كانوا أم آنسات، ومع هذا فلدي رغبة في تقرب أي منهم، وبذلهم مجهودا كي يلفتوا انتباهي لوجودهم في محيط حياتي، معادلة لا أفهمها، لا أتقرب من أحد، ولا أسمح لأحد التقرب مني، ومع هذا في داخلي رغبة كبيرة في نشوء صداقة جديدة.

قبل ما يقارب الشهر كنت أجلس على حافة سور خفيض قبالة كلية الآداب، يعتبر محل تجمع الفتيات والشبان لأخذ قسط من الراحة حتى يحين موعد محاضراتهم اللاحقة، تمت زراعة أشجار سرو عالية في حوض طولي، وخلفه على رصيف الشارع أشجار الخروب التي تبث في الشتاء رائحة مادة تنظيف كيميائية حادة ومزعجة يطلق عليها الكلور، حاولت الاندماج وتقليد المحيطين بي، فداومت على الجلوس قرب مجموعة من الطالبات اللواتي يلتقين كلما تسنى لهن ذلك، لطيفات جدا، حتى أنهن تقربن مني، فأخذت لا شعوريا أنتظر تجمعهن لمجالستهن،

وجدت في صداقتهن بعض السلوى، فأهملت حدسي الذي أخبرني أن هناك أمرا ما غير صحيح، المعطيات كاملة لهؤلاء الطالبات لم تشوبها شائبة، فقد بدأنَ بتوعيتي حول الالتزام الديني، والحديث المستفيض حول سكان الجنة والنار.

بالأمس تجمعنَ سويا، وتناقشن بأمر ما على انفراد، شعرت خلاله أني بعيدة عنهن، وأن محاولاتي للاندماج لم تلق ترحيبا كاملا، وحدث ما يؤكد شكوكي، بدأت إحداهن: سلمى... نحن نحبكِ، وقد أصبحت صديقتنا المقربة التي نسعى إلى هدايتها بالكامل إلى طريق الدين الصحيح والقويم، دين التزام كامل لا تشوبه شائبة، ولا ينازعك في التزامك بتعاليمه الدخول للجنة.

سألتها ببراءة: هل هناك دين جديد غير الإسلام؟

فالمعروف أنه آخر الديانات السماوية، ومع أني لا أحسب مع الملتزمين دينيا، إلا أنه لا نية عندي للارتداد عنه، اعتقدت أنها تطلب مني تغيير ديني، فمن غير المنطقي أن يسعى من يسعى إلى دعوة مسلم لاعتناق الإسلام من جديد!

ضحكت بهدوء: يا لبراءتك وبساطة تفكيرك، لا يوجد إلا دين الإسلام... ولكن، أخذت نفسا عميقا ودمعت عيناها وقالت بهدوء: نحن أتباع المهدي المنتظر، ونحن نُعدّ من الصحابيات لأننا كنا أول من بايعنه.

الصدمة، المفاجأة، الاستنكار... كلها وقفت حائلا بيني وبين فهم ما تصرح به، وهذه حالي عندما لا أستوعب الموقف الذي حُشرت فيه، أتحول إلى قطعة صماء خارج حدود المكان والزمان، وكي أستعيد تركيزي بعد الكثير من التشويش الذي يحدثه الكلام ابذل الكثير من طاقتي كي أعير من يحادثني انتباهي من جديد.

هل استوعبتِ فكرة ظهور المهدي! وأننا في نهاية مشوار هذه الحياة إن استحقت وصفها، مشرفين على البعث من جديد، مقبلين بكل إصرار على تقبل ما لا نتصور أننا نقترب منه، ودون إدراكنا الكامل ووعينا، ربما!

المهدي موجود بيننا، إذن أين هو الأعور الدجال! نظرت حولي لا شعوريا أبحث عنه، أي سخف هذا الذي هبط على فكري! هل ستقوم القيامة وبيننا من يوحد الله، ومن يؤمن بالرسل، ما زالت

المآذن تصدح بالأذان، ما زلنا رغم تقصيرنا نسعى لله بكل ما أوتينا من يقين.

لم أستوعب فكرة أن فتيات بكامل وعيهن ودرجة تعليمهن اقتنعن بادعاء رجل بلوغه مكانة دينية، واستغلالها معتمدا على جهل حاشيته ممن سرقهم الضبع، كما يقول المثل الشعبي الذي نستخدمه كلما شاهدنا شخصا يفعل ما لا يتقبله عقل، ويقتنع به ويحاول إقناعك، إقناعي مثلا من طرفهن أن مجرد اتصالي بهذا الشخص ومبايعته سيكفل لي مكانتي العالية في الجنة، ولإقامة الليل والتهجد في منزله مع بقية النساء اللواتي يكذبن على ذويهن بأنهن يقضين الليل عند أحد أقاربهن ويتوجهن بدلا من ذلك إلى منزله! وإقناعي أيضا أن ذنوبهن تغفر فور اعترافهن له بها على الهاتف!

اعتذرت منها بحجة حلول موعد محاضرتي، ولم أعد لذلك المكان ثانية، حتى أني صرت أسلك طريقا أطول إلى وجهتي بعيدا عنهن، ليس خوفا، وليس حرجا بقدر ما هو خيبة أمل عميقة، هويت من قمة جبل إلى سفحه حتى ترك علاماته على جنبات يقيني.

حاولت بعدها التسرب من توحدي إلى مجتمع كامل، ومنه لجأت للمشاركة في أنشطة الجامعة التي أتاحها قسم الإعلام لطلبته، وشاركت في أول رحلة إلى جرش ضمن مساق يخص مادة التصوير التلفزيوني، عبارة عن تصوير فيلم وثائقي، الطلبة قمة في الاندماج عجبت منه، جلست إلى جانب فتاة ملاصقة للنافذة، شعرت بتصلبي والتصاقي المبالغ فيه، نفضت جسدي في محاولة منى للاندماج مع البقية، حاولت حتى توزيع ابتساماتي على كل من مر بالمقعد الذي أجلس عليه، لم يعرني أحد أي اهتمام، كان الوضع بمجمله كأنما يتحاشاني الجميع، فيبدون عدم الرغبة بمخالطتي، أو حتى التعرف عليّ، حتى زميلتي في المقعد غيرت مقعدها وجلست بالمقعد المجاور للسائق بعيدا عني، شعرت بالحرج الذي تطور لضيق رافقني بقية الرحلة.

دخلنا منطقة الآثار، مرورا بأطراف مدينة جرش التي أقرب ما تكون قرية كبيرة بشوارعها الضيقة، وبيوتها المزدحمة على سفوح جبالها، ووديانها التي استحالت أنهرا من المحال التجارية والمطاعم السياحية.

بعد أن أوقف السائق الحافلة خارج حدود الآثار، ومن خلال طريق ترابي عبر تل، وصلنا سفحا يشرف على ساحة الأعمدة، ولأني أحيا في منزل لا يفقه إلا العنف اللفظي وتبادل الكراهية، كانت الآثار الحجرية معجزة مثلت أمامي بكامل سحرها.

لاصقت الدليل السياحي وأصخت السمع لكل معلومة جاد بها علينا، لن تستوعبي كمية الزهو الذي سكنني وأنا أتجول في أرجاء مدينة رومانية كأنما سكانها ما زالوا يسيرون بيننا، يستنكرون لباسنا ومصدرنا، أعملت مخيلتي، مزجتها والمكان، رأيت رجالا يلبسون الستر تحت التوغا[1] مختلف الأطوال، مثبت ببروش قريبا من أكتافهم، ينظرون ناحيتي ويتعدونني هامسين عن الغريبة التي سافرت عبر الزمن حتى وصلتهم، كانت أصابعهم جميلة بخواتم الزمرد و الألماس، الذهب كان يزين أغلب أصابع الرجال، بعضها كان يشبه ما تمهر به الرسالة كختم يميّز صاحبه.

(1) كان الرومان قبل ٢٠٠٠ سنة يرتدون هذا الزي، ويتكون من رداء أبيض متفاوت الطول يلف حول الجسم. عادة ما يكون التوغا مشغول من الصوف.

لن تصدقي درجة جمال النساء بالستولا[1] الطويل دون أكتاف تحت البالاّ[2] الذي يغطي أكتافهن نزولا على ظهورهن تثبته أيضا بروش، ويخفين صدورهن بالمآزر المتخذة من الجلود، كن يضحكن عن بعد، أعتقد أنهن ظنني رجلا مخنثا لارتدائي بنطالا وقميصا، اندمجت، تماهيت، شعرت بالعربات تصطف واحدة بعد أخرى حولي حتى أيقظتني يد أحدهم على كتفي: هل أنتِ بخير؟

كانوا يسلطون نظرهم على وجهي الضحوك كأني جننت، وماذا لو كنت كذلك، ما شأنهم بخصوصياتي!

غريبة الأطوار، مجنونة، صفات كثيرة التصقت بإذني تقاذفتها أفواه الطلبة، تفرقنا بعدها إلى مجموعات من أربعة طلاب لكل مجموعة، حصلت على كاميرا لتصوير المادة التي اخترتها.

---

(1) لباس خاص بالمرأة الرومانية يتكون من قطعتين مستطيلتين من القماش المترابطين على الجانب بواسطة الشظايا والأزرار.

(2) شال مستطيل يلبس فوق الكتف الأيسر من تحت الذراع الأيمن ثم على الذراع الأيسر.

انضممت غصبا عنهم -على ما أعتقد- إلى مجموعة المسرح الجنوبي، من يختار الطريق إليه عبر ساحة الأعمدة يسير صعودا حتى يظن أنه باتجاه جبل غير واضح المعالم، في أسفله دهليز، متى ما قصدته وجدت نفسك أمام شلال من أدراج شبه نصف دائرية تؤدي للسماء، تذكرت حلقة أفلام الكرتون «توم وجيري»، حينما صعد «توم» على درج كهربائي يقوده للسماء، تجاوزتُ مرافقيَّ وصعدت المدرج حتى أشرفت على جرش بأكملها، قوس (هادريان) [1] بالأعمدة الحديدية التي تسند أعمال ترميمه، أمامي مباشرة جزء من المسرح الشمالي، الهواء يلفح وجهي، وسطوع الشمس يحيي حواسي وهي رميم، شارع الأعمدة يكوّن مع الساحة شكل قيثارة فريدة في تصميمها، لم ألقِ بالا لنداء مجموعتي كي أنزل، جلست وأعطيت ظهري للعالم كـ«حنظلة»، متفرجة أنتظر حلا ويقيني أنه لن يوجد.

(1) قوس هادريان أو بوابة هادريان أو قوس النصر هو قوس نصر يعد من أشهر معالم مدينة جرش الأردنية. يقع في الجهة الجنوبية من المدينة، وهو بوابة ذات ثلاثة أقواس ارتفاعها الحالي ١١ مترًا، أقيم احتفاء بزيارة الإمبراطور الروماني هادريان للمدينة في شتاء سنة ١٢٩ ـ ١٣٠ م

الحجر صلب متى ما شكّلته أول مرة، أصبح من الصعب تشكيله بشكل آخر مرة ثانية، الأعمدة بتيجانها أمدتني بالصلابة، بالقسوة، سمحت لرغبة داخلية أن تطفو للسطح... أن أكون حجرا جميلا بهيا في قشرته، صلبا لا يلين من الداخل.

لم أحاول بث همومي، والحديث عن مشاكلي لأي كان، حتى أنني امتنعت عن الكتابة لحنين، فكل ما كنت أتلقاه بضع كلمات تشجيعية للصبر على ما أنا فيه، أو أنه واقع لا يمكن التخلص منه، كنت أبحث عن حل ما... سحري، كأن أهش على الواقع بعصا رغبتي فينقلب إلى عالم أبنيه على مزاجي.

أخي الشاب في مقتبل العمر، في السجن دون مقدمات، جرس أعلن عن وصولهم، وصوت ضرب عال فوق الباب: شرطة افتحوا الباب.

لأول مرة شاهدت أمي تسند جسدها على الأريكة التي أكره، فتحت الباب، أشهروا الأمر بالتفتيش في وجهي.

ثم كان انتشارهم كالنار في المنزل، لؤي أخي وقع بين أيديهم بفانيلته البيضاء وشورته القصير، لأول مرة أرى الاحمرار منفجرا

في عينيه، والسواد يكفنهما، وجهه أصفر كأنه جثة محنطة في ثلاجة، لم يبدِ أي رد فعل، سار معهم بكل هدوء ويداه مقيدتان خلف ظهره، كيس يحتوي بودرة بيضاء في يد ضابط خرج توا من غرفته.

- قفزت في وجوههم، صرخت، ضربت الضابط الذي يمسك به: إلى أين تأخذونه، لم يفعل شيئا، في الأساس، لا يغادر غرفته، لماذا تكبلونه، ألا يكفي أن روحه مكبلة بالوجع؟
- نظر الضابط المسؤول ناحيتي، دفعني بعنف فسقطت على الأرض، لكني هجمت عليه كلبؤة، وجدت أني اليقظة الوحيدة في بيت الأموات هذا: ماذا فعل... أخبرني على الأقل، إنه لا يؤذي نملة.
- لكنه يؤذي نفسه، صاح الضابط: ويؤذي شبابا غيره.

لم يغلق الباب خلفهم، وقليل من الجيران في هذا الوقت من الصباح كانوا أمام أبواب شققهم ينظرون ناحيتنا، مشهد سوريالي، يفجر قنابل السخط داخلي.

بقيت صامتة، لم تتحرك، وفي يدها سيجارة وكأن الأمر بأكمله لا يعنيها، ثم ألقت جسدها ثانية فوق الأريكة تتأمل السقف ودموعها تنساب فوق وجنتيها بصمت، أمي لم تعد هنا، صحت بها: تحركي... يقتادون ابنك للسجن، لم تنظر إليّ حتى: اللعنة عليكما إن كنتما لا تستطيعان العناية بنا، لما عملتم على وجودنا وسط قبحكما!

كم مضى من الوقت دون أن أكتب لكِ، دون حديث يصدر مني وتعليق لا يتلقفه غيري، ثلاثة شهور أم أكثر؟

أتعلمين أني في مصاف التشخيص الطبي أعاني من فصام في الشخصية، فأنا أتحدث مع نفسي على الورق، وكأنها كيان بحد ذاته.

وعلى الورق تمحى أوطان وتبنى غيرها لو يعلمون.

أشعر أني أكبر دفعة واحدة، أصل الخمسين بين وجع وآخر.

صدقتِ، ما زال الوقت باكرا كي يصدر مني كلام تفوح منه رائحة الإحباط والتشاؤم.

لكني أشعر بخارجي يلتهم داخلي بشراسة، ولا حيلة أمامي إلا محاولة بناء سد من أعصابي أمام سيول اللاشعور التي تجرفها.

أتخبط، أناضل، يغمرني الضياع وأتلاشى داخل عيون فقدت بريق الحياة، لساني يتفوه بسخيف الكلام طوال الوقت، لا أسيطر على ردود أفعالي، باختصار... صرت جسدا بلا روح.

لما كل هذه الدراما! سؤال في غير محله، بعد كل ما مررت به في سنوات من المفترض أن تكون أجمل سنوات حياتي...

والدتي جنت تماما بعد أن وصلها خبر زواج أحمد، صحوت على صوت زجاج يتحطم فوق أرضية البيت وعلى حوائطها، تحطيم للأثاث، وقلب قطعه رأسا على عقب، صراخ... نحيب، نشيج وعواء، ضحك هستيري، مضغ للسجائر ونفثها في وجه والدي الذي استحال واحدا من تماثيل متحف «اطلانطيكو» تحت الماء، لم يسعفني الوقت لقراءة ملامحه، لم أتبين إن كان غاضبا أو حانقا، حزينا أم مذهولا، ولكنني لن أنسى أبدا أن وجهه كان يضج... خسارة.

توافد الجيران أمام باب شقتنا لاستطلاع أية مصيبة حلت على العائلة الملعونة كما كانوا يطلقون علينا، شعرت أمام عيونهم بأنني أصغر وأصغر، حتى لم يعد لي وجود، أخواتي أصبن بالفزع فانتزعتهما جارتنا من بين يدي والدتي قبل أن تقذف بهما من النافذة، التصقت دون إدراك مني بالحائط لا أشعر بالدموع المنسابة فوق خدي أمام مشهد لن أنساه ما حييت، تحولت والدتي إلى «غولة» تفتك بمن حولها، ولا قوة تردعها عن الوثوب فوق والدي ومحاولة قتله، الدماء سالت من وجهه بعد أن غرزت أظافرها عميقا بجلده، هذا آخر ما بصرته عيناي قبل أن يلفني السواد وأفقد الوعي.

فقدان الوعي حتى وإن كان لا إراديا، أنجع طريقة للتخلص من ألم انسلاخ الكرامة والهيبة أمام جمهور من المتفرجين، وكسب تعاطفهم إن كان شعورهم عكسي تماما.

بدأت بالتلاشي، أو وددت لو يحدث، وقفت على حافة الهاوية، الجزء الميت مني يدعوني للقفز بين أنياب الموت ليجهز عليَّ وأتخلص من عيون الجيران التي تلاحقني في ذهابي للجامعة

وإيابي منها، والجزء المحب للحياة يدفعني للتمسك بمنطاد السمو بما تبقى مني، وإنقاذه من الغرق.

حالة لا يمكنني وصفها، شعور لا أملك ما يعبر عنه، دافع سيطر عليَّ بالكامل وكأن كل ما حولي يشيعني للرحيل، وقد فعلت، لكنني لم أنتحر كما سولت لي نفسي.

سرقتُ مصاغ أمي الذهبي بعد أن أودعت المصح العقلي... قمت ببيعه، حصلت بثمنه على جواز للسفر وتذكرة للطائرة...

لم أفصح لأحد عن رغبتي في الهجرة، ولم أطل البحث عمن يساعدني، فقط أشعلت نيتي وهي من توكلت بجذب الأشخاص المناسبين لإرشادي حول طريقة حصولي على الفيزا.

تركت البلاد وسافرت دون أن أترك خلفي ما أندم عليه، أو يجرني الشوق للعودة من أجله.

لم أنتظر حفل تخرجي، ما فائدة ارتداء روب والاصطفاف بين طلبة كل واحد منهم ينتمي لعائلة... أفقدها أنا!

تواصلت بعدها مع فتاة كنت ألتقيها بين فترة وأخرى كي تخلص لي أوراق تخرجي من الجامعة وترسلها لي بالبريد، وهذا آخر ما وصلني من بلاد لا يربطني بها إلا شعور العار والنقص وخيبة الأمل وانعدام الأمان، لم نكن في دولة تقض مضجعها حرب، بل كنت وسط عائلة متناحرة منذ وجدتُ نفسي عنوة فردا منها.

لستُ أنانية، وحتى لو كنت لست ملاكا يسير على الأرض، ما كان يجب أن أسرق، ولكن ما كنت أستطيع البقاء أكثر.

استشرت ضميري فقال لي: سرقة شخص لن يفتقد ما سلب منه، لا يعد سرقة.

«عندما يتعب الرجل من لندن فقد تعب من الحياة! ففي لندن كل ما يمكن أن تقدمه الحياة»، ما قاله ساموبل جونسون هو الدافع الرئيسي لاختياري المملكة المتحدة مقصدا لهجرتي.

نعم... هجرة دون أن ألتفت من فوق ظهر سفينتي لاستطلاع ما فعل الطوفان خلفي، ليس بهذه البساطة، فكل ما حدث في حياتي سابقا كان يزفني بالكامل للمضي في قراري هذا.

لا تصدقي أبدا أنه يمكنكِ اتخاذ قرار مصيري فجأة دون سابق تفكير.

مغامرتك كانت لها أسس وبنيان داخلك اكتمل دون أن تلحظي، ودفع برغبتك بالكامل لتقدمي على خطوتك المصيرية تلك، لسنا من سلالة القرود (الداروينية) حتى نتعلق بوضع حياتي أقل ما يوصف أنه متهالك، إن كنت أستطيع أن أنجو بما تبقى مني، لما لا أفعل!

مساء الخير يا جميلة، أنا الآن أفضل حالا من يوم وصولي إلى لندن، أصبحت بعد مضي أشهر أعرف أي الطرق أسلك، وأي المتاجر يجب أن أقصد، وصلت إلى مطار (هيثرو) في الساعة ٥:٠٥، قبيل وقت المغيب كما أشارت ساعتي المضبوطة على توقيت الأردن، بعد أن انطلقنا من الأردن في الساعة ١٢:٢٠ ظهرا، شعرت بالغرابة لا بالغربة، ظننت وأنا أهم بمغادرة مطار الملكة علياء أن الشرطة ستستوقفني بناء على بلاغ باختفائي من أهلي.

- أي أهل؟ ضحكتُ بمرارة...

أدركتُ أني يتيمة حالما دخلت المطار، صالات واسعة تختلف عما كنت أشاهده في الأفلام على شاشة التلفاز، ضجيج مكبوت، وأصوات موظفات الاستقبال تصدح بين حين وآخر معلنة عن اقتراب موعد الرحلات، بعض التعليمات التي يجب على كل مسافر اتباعها، شعرت بالضياع لفترة، أمسكت بأوراقي، لا أعلم أي وجهة أسلك، وكأن الشرطي ميّز أني أسافر لأول مرة: هل تحتاجين لمساعدة آنسة؟

- سأسافر لأول مرة إلى لندن، لا أعرف ما هي الإجراءات التي يجب تأديتها وأية البوابات أسلك.
- ابتسم وأشار إلى بوابة قريبة، منها تبدأ إجراءات سفري، تناول مني الشرطي جواز سفري وسمه بالختم: رافقتكِ السلامة.
- سألت موظفا قريبا حول الإجراء التالي، نظر لي: ألا تملكين أية حقيبة غير ما تحملينه فوق ظهرك؟
- نعم هذه حقيبتي الوحيدة.

- إذن تستطيعين تعدي هذا الطابور وأشار إلى جموع من المسافرين يصطفون خلف بعضهم لتسليم حقائب سفرهم للمضيفة، حتى يأخذها الموظف إلى الطائرة.

اتبعت تعليمات الموظفين الذين كنت ألتقيهم في مسيري حتى وصلت إلى بوابة الطائرة، كنت متعجلة، والساعة تشير إلى الـ١٠ صباحا، تقدمت مثل بقية المسافرين إلى المضيفات وأشهرت لهن تذكرة الطائرة والابتسامة تعلو وجهي، نظرت لي وقالت: أنت مسافرة إلى لندن يا آنسة في الساعة ١٢.

- نعم صحيح.
- هذه الطائرة متوجهة إلى بيروت، أرجو منكِ الانتظار حتى يحين موعد طائرتك.

شعرت بالحرج، ظننت أن لا نظام ولا التزام بموعد الرحلات، وكل بوابة تقود لطائرة أستطيع أن أسلكها وأنتظر داخل الطائرة كما في باصات شارع الهاشمي في إربد، إلى أن تمتلئ الطائرة بالركاب ومن ثم تنطلق، يا لسذاجتي.

أخذت مكاني فوق كرسي الطائرة، لم أشعر بأن ما أقدم عليه غريبا، كنت مرعوبة، الخوف سجل هدفا قويا في قلبي،

أتلّفت حولي كالهاربة من موت محتم.

جميع الركاب هادئون، لا علامات جزع تعلو وجوههم، ولا حتى قلق، وأنا لحسن الحظ أو لسوئه وحيدة في مقعدي.

الإقلاع كان كارثيا، تخيلت أن الطائرة ستسقط قبل أن تقلع، كيف يمكن لطائرة تبلغ مئات الأطنان من نوع (بوينغ) أن تطير في السماء دون أن تتعرض لأي سبب مفاجئ يؤدي إلى سقوطها وتحطمها، أمسكت بمسند الكرسي وأسقطت رأسي فوق صدري وبدأت أتضرع إلى الله، حتى شعرت أن الطائرة لم تعد تتحرك، ظننت أن أحدا أوقفها، وعدت إلى الظن أن الرشد عاد لأهلي، لكني كنت في السماء، معلقة في الهواء، لو سقطت الطائرة لما تبقى مني إلا عار يطال عائلتي ويزيد غرقهم في وحله أكثر وأكثر.

- سألتني المضيفة إن كنت بخير أو أحتاج إلى مساعدة، وبإجابة نفي من رأسي أخبرتها أن تغرب عن وجهي، أي ورطة وضعت بها نفسي!

صحوت على صوت الطيار يعلن عن اقترابنا من مطار (هيثرو)، نظرت من نافذة الطيارة ناحية الغيوم التي تحد نظري، كلما انقشعت قليلا كشفت جزءا من أرض خضراء، وبحيرات واسعة، ومنظومة بناء غاية في التعقيد، سألت نفسي حينها: كيف سأستطيع إيجاد طريقي بين هذه المكعبات البنائية؟

جل همي صببته حول الآلية التي ستهبط بها الطائرة، خفت أن يخطئ الطيار بتقدير المسافة بين السماء والأرض فنصطدم بالمدرج، أو حتى ببرج المراقبة، أضحك على نفسي الآن عندما أتذكر الرعب غير المبرر الذي زرعته فيها حتى استولى على أفكاري بالكامل، فجل مشاكلنا الكبيرة تحدث في عقولنا فقط.

نُقلنا من مدرج الطائرات لداخل مبنى المطار بما يشبه الباص، غرفة واسعة متحركة تحيطها شبابيك، بقي الجميع متمسكين بمقابض جلدية مدلاة من السقف، لو أنني ما زلت في إربد لن أقبل على نفسي الوقوف في حافلة متحركة، الجميع هنا اتخذ نفس الوضعية، وهذا ما دفعني لاتباعها دون استهجان.

لم أفكر وأنا أطأ أرض بريطانيا أنني وحيدة غريبة لا أملك إلا حقيبة فوق ظهري، واسما يربطني بعائلة أرهقتني حد القرف،

نظرت حولي... غرباء هنود، عرب -حاولت الابتعاد عنهم- أفارقة، من شرق آسيا، مزيج بث في قلبي الطمأنينة ودفعني لإتمام ما قدمت من أجله.

يتجاوزون بعضهم، كل يختار طريقه ووجهته، حذوت حذو الجميع، لكن المطار في سعته فاق كل تصور لدي، هناك العديد من المحطات، والعديد من وسائل النقل بينها مسار متحرك، قطار، وباص، حاولت أن أتمالك نفسي، أمسكها حتى لا تضيع، مشيت على غير هدى أبحث بعيني عن أي فرد من البوليس كما طلب مني مستشاري للهجرة حتى اصطدمت به دون قصد، ساعدني وجهي الشاحب بنقل رغبتي في طلب اللجوء:

I am a Jordanian citizen. I want to seek asylum in the United Kingdom because my life is threatened[1].

بعد أن رمقني بنظرة من رأسي إلى أخمص قدمي، قادني لمكتب البوليس.

(1) أنا مواطنة أردنية، أريد طلب اللجوء في المملكة المتحدة لأن حياتي مهددة بالخطر.

دار حوار طويل بيننا، بكيت كما لم أفعل من قبل، الماضي بضعفه وقلة حيلته جثة مشوهة توشك أن تتلاشى، عالم بأكمله يطمر تحت أكوام سخطي ورفضي:

My parents are forcing me to marry a man I don't love and if I refuse then they will kill me[1].

نظرات الشك والريبة تحولت إلى حنو وشفقة، حاولوا التسرية عني وطمأنتي:

Don't worry you are safe here in our country,
Here, the law prevails and we respect freedom.
In every nation, discrimination is found despite the laws, prohibiting them[2].

لن يمسني أذى هنا في بلادهم، حيث احترام الحرية وسيادة القانون...

بقيت يومين عند البوليس، حظيت باحترام عزز الثقة بنفسي، وفي نفس الوقت طرحت علي وابلا من الاستجوابات والأسئلة،

(1) يجبرني والداي على الزواج من رجل لا أحبه، وإذا رفضت فسيقتلونني.
(2) لا تقلقي أنتِ بأمان هنا في بلدنا، هنا، يسود القانون ونحترم الحرية.

توقفنا عند من لي في بريطانيا ليقوم بكفالتي، اللعنة على مرشدي... لم يتطرق نهائيا لهذه النقطة:

- I run from death to your country and I have no relatives or acquaintances here to do my bail[1].
- Ok we will try help you
- قبل تحويلي إلى مكتب HOME OFFICE حصلت منهم على Permission عوضا عن الكفالة التي لم أستطع تحصيلها، ومن ثم تم منحي ورقة تفيد أنني طالبة لجوء، قدموا لي مجموعة أوراق لملئها، في خانة الاسم الموجودة اخترت اسم: Titania تيتانيا.

لا أشعر بتأنيب الضمير، ولما أفعل؟

لأني كذبت!... أم لأني سرقت!... أم لأني تجردت من أهلي ووطني واخترت أن أكون لاجئة في بلاد أجنبية لا يربطني بها إلا وجودي هنا في مطارهم! بين أفراد يخافون علي أكثر من والديّ.

(1) هربت إلى بلادكم من الموت وليس لدي أقارب أو معارف هنا للقيام بكفالتي.

لا، لم أتساءل عن مصير إخوتي، فلست المعنية بهم بوجود أب من المفترض أن يتفرغ كليا لرعايتهم بعد ما آل إليه حال والدتي بسبب حبه لتملكها.

أدخل في دوامة الحب، لا أستوعب أن من يمسك قلب محبوبه بقبضته ويدق به كامل جسده حتى يدميه، ثم يعيده إلى مكانه معتذرا عن فعلته متوقعا منه الصفح والمغفرة! بل ويطلبه برجاء زائد وعلى يديه بقايا دمه، وفوق الجسد المنهك أثار خذلان، وثقوب بقايا ثقة يصنف في مصاف الحب حبيبا!

يجهز عليه بكآبة الهجر، وفداحة الغدر، بإجماع النقص الذي يخلفه فيه، ويتساءل المحبوب هل أشكو من خطب، ما سبب تركه لي؟

لا تشكو إلا من كونك إنسانا يملك قلبا محبا، وجد فيك فريسة ليعبر من خلالك إلى بر الأمان، بعد أن حطم أحدهم قلبه، وكفعل انتقام غير مباشر سعى لتحطيم قلبك.

في حياة كل منا حب غير مكتمل، سنبقى نشعر به مهما بلغنا من العمر، يسكننا بقسوة كأعوام لا تعود... كل يرحل إلى جهة

مخلفا جزءا منه في الآخر، حتى نصل الزواج ناقصين، حسن حظ بعضنا أن يجد من يرمم الجزء المكسور فيه، ويعمل على رفو الجزء الممزق، وسوء حظ آخرين أن يلتقوا بمن يزيد الشرخ اتساعا، فيجعل منه هوة سحيقة.

ناقص يسند ناقصا، إما أن يكملا بعضهما، وإما أن يبقى الشرخ حاجزا بينهما، والشرخ في حياة عائلتي واسع لا فائدة ترجى من ترميمه.

نقلت بسيارة البوليس إلى حي داخل لندن، استهلكت الطريق من المطار ساعة وربع تقريبا، لن أفي المدينة حقها، لم أكن مبهورة بالمدينة فقط، بل وقعت في حبها، تذكرت كلمة حنين حين قرأتها، تساءلت كيف لإنسان عاقل أن يقع في حب جماد، مدينة أو حتى دولة بأكملها، لكنني الآن عرفت أن مسام جسمي كاملة رحبت بهذا الشعور الذي تدفق دفعة واحدة من الهواء المشبع بالبرود... برودة لذيذه تنعش القلب وتلهب الحواس.

الطريق إلى مدينة لندن محفوف بالأشجار، لا أعلم كيف يحفظ السائق اتجاه الطرق من كثرة التقاطعات والمسارب الكبيرة والعديدة، صادفت مبنى معلقا كأنه صحن طائر، ومنه تتفرع

الكثير من الأنابيب، أظن أنه قطار معلق، يصل الأحياء ببعضها، البيوت هنا على الطراز (الفكتوري)[1]

محاولات الملكة فكتوريا في عكس رقي المجتمع البريطاني من خلال تميز طريقة بناء بيوتهم نجحت ١٠٠ بالمئة، فما زال طابعها الذي استسقى فن العمارة من أساليب وامتزاج طرازات الشرق الأوسط وآسيا، وكذلك الطراز الغوطي الجرماني والروماني والأندلسي، التي تمتاز بكثرة التفاصيل والنقوش والزخارف، وهي صفة ملازمة له، كما تتميز أيضا بالنوافذ البارزة، والشرفات والأعمدة ذات الطراز الروماني، والأبراج المستمدة من الفن الغوطي، أو السقوف شديدة الانحدار بسقف خشب على شكل مثلث مغطى بالقرميد والآجر الأحمر الذي يعد أساسيا في البناء، قصر (وستمستر) -بناية البرلمان- بدا لي منشأة من عالم الخيال، أقل ما يقال أنه ابهرني، لا يوجد الكثير من العمارات العالية إلا في وسط لندن.

(1) كناية عن حقبة الملكة (فكتوريا) التي سجلت أطول مدة حكم بلغت ٦٣ عاما، ازدهرت فيها بريطانيا بمختلف الميادين، وانتقلت من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي، بلغت ذروة عالية من الغنى والرفاهية بسبب الموارد التي كانت تصلها من المستعمرات التابعة لها.

شكل سيارات الأجرة عندهم غير مألوف، سوداء اللون، وتأخذ شكلا مضحكا، إلى جانب حافلات النقل ذات الطابقين باللون الأحمر، لم أستسغ فكرة وجود مقود السيارات على الشمال، ضحكت بسري عندما تذكرت أن السبب في اختلاف بريطانيا لجهة القيادة الشائع في كل دول العالم جاء لمخالفة ما حاول نابليون فرضه على الإمبراطورية البريطانية خلال حملات الحروب التي شملت دولا بمختلف أنحاء العالم، وفرض قوانينها عليهم، رفضت بريطانيا سريانها كونها دولة عظمى، ورضخت غيرها من الدول.

سكنت مع امرأة تناهز السبعين...

وضعت إليزابيث الأوراق جانبا، خشيت أن تقرأ ما كتب عنها، كيف رأتها تيتيانا؟ نظرت للأوراق ثانية، أمسكتها بحزم وبدأت من جديد...

... حذت حذو أفراد البوليس في المطار، رمقتني بنظرة من رأسي إلى أخمص قدمي كأنها تدرسني وتحلل بياناتي، توقفت عند الباب أنتظر حتى يكمل رجال الأمن حديثهم معها، بدت وكأنها صفحة بيضاء تلونت في الحال، فجأة وجدت نفسي بين ذراعيها،

ضمتني بحنان لم أجده بين ذراعي والدتي، ذرفت الدموع، انتحبت، ما تمنيته من أمي وجدته هنا بين يدي هذه الغريبة في بلاد بعيدة، شكّل حضنها عالما بأكمله، مسحت على رأسي:

Don’t worry you are here now.

أحيانا كثيرة لا يخطر على بالي التواصل معك، أو مخاطبتك، أوجه أمرا لأصابعي لتتوقف عن تسطير ما يحدث معي في يومي ونقلها لكِ أنتِ كياني وداخلي ونفسي، الأنا القابعة والمحرضة والآمرة والمنفذة هي السبب في وقوفي هنا خلف نافذة الطابق الثاني في منزل إليزابيث، هذه المرأة الطيبة التي أشبعت في داخلي جوع الطفلة لأمها، قطعة البازلت التي كملت نقص لوحة الأسرة التي فقدتها كليا قبل أن أبدأ مرحلة الطفولة وقد تكون قبلها.

أعود لسؤالك أنتِ: لما أكتب لك، ما النفع الذي أجنيه!

الراحة النفسية بتفريغ الكبت، والسلبية فوق الورق الذي يقود إليك مباشرة!

هل تشعرين بفداحة الضعف الذي استوطنني، ويستوطنني منذ بدأت أخفيه بقوة هشة أخشى تلاشيها إن تعرضت لأي عارض.

أم أنها المصالحة بيننا! فالصراع الخارجي كفيل بالإطاحة بي دفعة واحدة، لذلك دفعني اللاشعور للبحث عن سلام داخلي، فتواصلت معك.

الشارع أمامي خال من المارة والسيارات، الوقت غروب الشمس، وأنا هنا أحاول التفكير بالخطوة التالية، لم امنح حرية التحرك قبل الحصول على حق اللجوء رسميا.

صرفت لي الحكومة مصروفا شخصيا يكفيني للتنقل ضمن الحدود الداخلية في لندن، ساهمت في ثمن الطعام الذي تطهوه (إليزابيث)، حتى والحكومة تدفع لها إيجار مكوثي، وجدت أني ابنتها دون تخطيط من الطرفين، لم تعرض ولم أسألها، اهتمامها بي ودلالها لي قابله مساعدتي لها في أعمال المنزل اليومية، استمتعت بالأسابيع القليلة معها، نسيت أني أنتظر، وددت لو أحصل على وظيفة وأبقى هنا لأعود إلى الدفء والاحتواء.

منزلها من طابقين، بمدخل يتسع كلما تعمقت للداخل، على الجهة اليمنى غرفة واسعة بأثاث قديم مرتب بعناية، مزيج من اللون الأخضر الغامق والخمري المائل للبني، نوافذ الغرفة عالية، تطل على حديقة ضيقة داخل سور المنزل المعدني، كانت

الحديقة زاخرة بنباتات الزينة من قبل كما أخبرتني إليزابيث قبل أن يحد الروماتيزم من حركتها، الستائر فوق النوافذ لا تحجب الرؤية بقدر إضفائها جمالا بقماشها الشفيف اللامع كلما تحرك بفعل الهواء، مكتبة تضم العديد من الكتب تتقدمها صوفا طويلة تسمح للمطالعة بالاسترخاء، أنفقت الكثير من الوقت فوقها أطالع كل كتاب وقع بين يدي.

المطبخ بخزائنه الأرجوانية التي يتخللها اللون الوردي الفاتح مع القليل من الأبيض بأثاثه البسيط، وباب تقود خلفه درجات ثلاث إلى الحديقة يمنحني شعورا بالراحة كلما دخلته، لا تعكر صفوي إلا أصص النباتات الميتة على أطراف النافذة التي تعلو حوض غسيل الأطباق.

الدور العلوي عبارة عن غرفتي معيشة وحمام، تتوسطهما صالة تحتوي صوفا قديمة خلفها نافذة واسعة وتلفاز أمامها، موقد نار حجري في طرف الغرفة.

تحتوي غرفة إليزابيث التي يعكس عليها اللون (الايفوري) بتوشيحة بسيطة من اللون الأرجواني سريرا مزدوجا قديما وخزانة مطعمة بالزجاج الملون اختارها زوجها المتوفى ادوارد، للغرفة

نافذتان واسعتان، وفيها حمام داخلي، دمعت عيناها عندما جاء ذكره، لكنها أزالت دموعها بابتسامة، غرفتي قبالة غرفتها بديكور حديث وسرير منفرد، أمامه مباشرة خزانة باللون الأزرق الغامق، السطح ينزلق للأسفل حتى ظننت أني لن أستطيع رفع رأسي دون أن أصطدم بالسقف المنتهي عند ظهر السرير، لكن لم يحدث يوما، كلما مرت الأيام وأنا هنا أشعر بالاتساع يبدد الضيق من صدري، ورق الجدران المليء برسومات لطائرات مختلفة الأنواع تدل على أنها كانت غرفة تخص صبي، لم أحاول أن أسأل من يكون، فكما قال لي مرشدي قبل أن أسافر: إن أردت أن تكسبي صداقة البريطاني لا تسألي عن خصوصياته، أو تتدخلي بها، إضافة إلى أني لم أكن فضولية، اللامبالاة صفة لاصقتني منذ كنت طفلة.

حاولت التزام غرفتي في اليومين اللذين تليا وصولي، كنت أخشى التصرف أو الحديث بما لا يعجبها، فتعمل على ترحيلي بأمر من البوليس لمكان يضمني مع غيري من الفتيات، إلى أن تخلل الباب رأسها بشعره الأشيب، ووجهها الصبوح، وقامتها المنحنية قليلا، والأهم ابتسامتها التي تبث في قلبي الطمأنينة:

- لماذا تسجنين نفسك يا صغيرتي؟ أما زال الرعب يفتك بك؟ جلست على مقعد قريب مني ووضعت يدها المتعبة فوق يدي: لا تخشي شيئا... لن يصيبك أذى هنا.

مضت ثلاثة أسابيع، المطر يتساقط منذ يوم البارحة، كنت وإليزابيث نحتسي الشاي في الصالة السفلية عندما دق جرس الباب، ولأن الروماتيزم اليوم يفتك بمفاصلها طلبت منها أن تبقى جالسة وفتحت الباب، مد لي ساعي البريد ظرفا مرسلا من مكتب اللجوء، وطلب مني مراجعتهم غدا صباحا لإتمام إجراءات قبول الطلب الذي قدمته.

القلق من الرفض كان حاضرا طوال فترة مكوثي هنا، وجل ما أفكر به، احتمالاته وماذا سأفعل لو حدث، أين سأذهب!

لم تخطر لي أبدا العودة إلى أهلي، أو حتى التوجه إلى أي مكان آخر غير هنا، كنت أتمنى أن أبقى في هذا البيت، مع إليزابيث، أمي التي لم تلدني.

لم أستطع أن أفتح للفرح بابا، هذا المنزل... هذه المرأة أصبحا كل حياتي، القليل من الوقت الذي قضيته معها أعاد لي توازن أعوام فقدت نفسي بها.

أتعلمين ماذا فعلت عندما دخلت الغرفة وفي يدي الظرف؟ كنت أتطلع إليه تارة وإليها تارة أخرى، فهمت من شكله الرسمي .. مضمونه، ذكية جدا ومثقفة رغم كبر سنها، تحب الألوان الزاهية التي تلون الحياة، حتى وإن كانت سوداء، هكذا أخبرتني، مفسرة للألوان التي تصبغ كل غرفة في منزلها وتميزها عن غيرها من الغرف.

- Are you willing to leave your home as my son George did after the death of his father?[1]

سؤال ممزوج بقلق واضح .

وأنا لم أعتد التعبير عن مشاعري بحرية، دائما كنت حبيستك، حبيسة الأنا، أحاول أن لا تطفي على السطح حتى أبقى متماسكة قدر ما أستطيع، ومع هذا فقد أخفقت،

(1) هل ستغادرين منزلك كما فعل ابني جورج بعد وفاة والده.

أصبحت هشة كثيرا من الداخل، والصلابة على مظهري الخارجي متهالكة لم تعد تقوى على حملها المضني.

لأول مرة تتحدث لي عن أمر يخص حياتها الشخصية، أعادت:

- هل ستغادرين؟

لم أكن أنوي ذلك، اعتقدت أنها ترغب في البقاء وحيدة، أن تعود لحياتها السابقة قبل أن أحضر.

لكن القلق في عينيها كان ينقل رغبتها في بقائي، وصوتها المضطرب يرجوني، تمنيت في سري أن توافق وها هي تفعل.

- لا أعرف غير هذا البيت ملجأ، سأبقى إن سمحت لي.

ابتسامتها المتحفظة كشفت فرحتها، وأنا لم أستطع التعبير عن فرحتي المكبوتة إلا بجلوسي فوق الكرسي، وإكمال فنجان الشاي بعد أن أضفت إليه القليل من الحليب.

إذن... فغرفتي كانت لجورج ابنها، لم أحاول سؤالها عنه فيما بعد، ولم تفعل هي أيضا، أظن أنه مات، لأنها لا تأتِ على ذكره مطلقا.

لم تأخذ معاملة اللجوء الكثير من الوقت، تم منحي الموافقة بالإضافة إلى موعد يحدد لاحقا للحصول على رقم وطني (ISURANCE NUMBER)، هذا يعني أنني سأحصل على وظيفة، يعني أنني أستطيع المباشرة في تحقيق طموحي، لم يكن مكتب اللجوء بعيدا، لذا اخترت المشي حتى منزل إليزابيث، كنت سعيدة، فاشتريت نبتة صغيرة بورود جميلة لونها أبيض، لم أعرف حينها ما اسمها، لكنها متوفرة في كل محلات الورود بعدة ألوان، منتشرة على أطراف الرصيف، مرتبة بشكل أخاذ، أخبرتني إليزابيث فيما بعد أنها «الأوركيد».

في بلادي تميزت عن زميلاتي بشعري الأسود الغامق، والناعم الطويل، وقفت أمام صالون للتجميل، غصصت بدمعي والمصففة تعمل المقص في شعري حسب طلبي، لم يتبق منه إلا ما يغطي أذني بما يشبه الصبيان، ذهاب شعري كشف عن طول رقبتي حتى شعرت من طولها أنها معوجة.

شعوري بالسعادة يتعاظم كلما هطل المطر وبلل ما تبقى من شعري الذي أعجب إليزابيث: كنتِ جميلة وازددتِ جمالا.

لم أقتنع... شكرتها بابتسامة مع أني أعرف أن لا وجود للمجاملة في حياة أهل بريطانيا، وهذا ما دفعني لتحريك رأسي يمينا ويسارا في غرفتي لزيادة كثافة الشعر المتبقي، وللشعور بحريتي، ما دخل قص الشعر بالحرية؟!

المرأة كائن غريب، تحاول أن تخفف حملها كي تتحرك بسهولة وتنتقل بسلاسة، لا وزن يذكر للشعر، ولكنه الجزء الوحيد الذي تستطيع التحكم به دون أن تسبب لنفسها الأذى، وفي نفس الوقت تحتفظ بجمالها، لن يستنكر عليها أحد فعلتها، يعني بشكل أبسط... تقص منه للتخلص من ضغط داخلي لا يعلم عنه من يقع نظره عليها، وتزيد من جمالها لتلفت الأنظار لها، مع أن هذا لم يكن هدفي، إلا أن نظرات الإعجاب التي لاحقتني في الشارع رسمت على وجهي ابتسامة زهو.

أشهر ستة مرت عادت فيها حديقة إليزابيث لسابق عهدها، أصص النباتات الداخلية ملأتها بنبات «الأوركيد».

حصلت على كميرا رقمية قديمة من سوق يبيع أدوات مستخدمة مررت به ذات نهار، لا تسأليني لماذا قمت بشرائها؟ بحثت في داخلي كثيرا ولم أعثر على جواب.

لكن وجدت سلواي في التقاط الصور، التقطت صور الأرصفة المبتلة، غرف هاتف الشوارع، التقطت صورا للزهور والعشاق، باختصار لم أترك شيئا.

بدا النهار رتيبا، مطر تتلوه شمس ساطعة، ضباب يكتسح الشوارع مرة واحدة ثم يتراجع مخلفا بقاياه معلقة على أطراف الأسوار الحديدية.

هدوء الكون كان مسكونا بإشارات قلقة، تسربت من أنفاسه رائحة التوجس، قلبه ينبض في حلقة كأنما يبتلع المدينة على مهل ويمنع صراخها بمنديل يلفه حول فمها، لم أوفق في التقاط صورة واحدة، نظرت للسماء، لا عارض يدعو للخوف، لكن في أعماقي شعرت بالموت يقترب.

إليزابيث! دلفت المنزل، نظرت ناحيتها في المطبخ، صحتها جيدة اليوم تحديدا، لم تشكو منذ الصباح من أي عارض كما حدث

معها في الأيام السابقة، هل يمكن أن تكون في سكرات الموت حيث يشعر الميت بأنه شفي تماما من كل الأمراض التي يعاني منها قبل أن ينقض الموت عليه.

ما هذه الأفكار التشاؤمية التي سيطرت عليّ فجأة.

يومها استمر انقباض قلبي حتى بعد ذهابي للنوم، كان هناك شيء ما في الجو غير مريح... يشي بالفراق، والفقد.

لم أغفو، استمريت في الذهاب والعودة من وإلى غرفة إليزابيث، أتأكد أن صدرها يتحرك بفعل التنفس، وكلما تحركت اطمأن قلبي، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، جلست في المطبخ وفي يدي كوب من الحليب عله يساعدني على النوم، أدرت جهاز التلفاز، لم أصل مقعدي حتى كان صوت المذيع على قناة (BBC) يعلن عن حادث سير وقع للأميرة ديانا مع عشيقها محمد الفايد (دودي) في باريس، شدهت، لا... ليس صحيحا أن الموت الذي يحوم منذ الصباح في لندن ينتظر ديانا في نفق (ألما)!

تابعت التقارير الإخبارية بقلق كأنني المتسببة الرئيسية بالحادث، وماذا عساي أن أفعل، هل كنت أعرف أنها ستصاب بحادث مروري مروع الليلة!

السؤال المهم... ماذا لو أنني أخبرتها بشعوري؟ كانت ستضحك بملء فمها على سذاجتي.

الموت ما زال يبتلع لندن، لم يلفظها بعد، عالقة في حلقه والأميرة ديانا تحت مشارط الأطباء يحاولون إنقاذها بكل ما أوتوا من علم، دعوت الله بصوت خفيض كي تشفى، بقيت على هذه الحالة بعضا من الوقت، سأصدقك القول... لم يكن دعائي لأجلها، بل لأجلي، سيبقى شعوري بمسوؤلية موتها يرافقني ردحا من الزمن، دفع الهواء نافذة الصالة... حلقت الستارة الخفيفة عاليا وأسقطت في طريقها نموذجا مصغرا لقصر «كنجيستون»، تحطم لقطع صغيرة: يا إلهي... إشارة... هذه إشارة.

أزيل المنديل عن فم لندن في تمام الساعة 3:57 صباحا.

ضمن آلاف البريطانيين وضعت زهور «التوليب» عند سور قصر «كنجيستون» وتركت رسالة من عبارتين باللغة العربية :لم تكوني مجرد أميرة، كنتِ أمًّا عظيمة.

قررت إعادة لملمتي وترتيب ما تبعثر مني.

لا أعلم كم ستطول فترة غيابي، قد أتوقف كليا عن الكتابة لك، أشعر أخيرا أنني بدأت هنا ألتقيك وجها لوجه.

من اعتاد المشي بثبات فوق أرض هلامية، عجز عن الوقوف دون سقوط فوق أرض ثابتة، هذه أنا باختصار، اعتقدت أني أشاهد نفسي في فيلم تلفزيوني، فهذه الحياة الهادئة الرتيبة بشكل ممتع لا يمكن أن تكون لي، في الحقيقة شعرت في أعماقي أن هناك خطبا ما، وأني مقبلة على مرحلة جديدة خطرة.

لم يطل الوقت حتى عاد صاحب الغرفة الزرقاء، هجر والدته إليزابيث سنوات دون أن يعلمها بمكانه، قرر أن يعود دون سابق إنذار.

كان اللقاء بيننا صادما، ليس من جهتي... فأنا لا أشتهي الشجار، ولا أسعى إليه، بل أتحاشاه فور شعوري باقترابه، ليس خوفا، إنما

عدم اكتراث... وبلادة لا أنكرها بل أحبها بكل ما أوتيت من رغبة بسلام داخلي.

لا تستطيع التكهن بالطقس هنا، جو ماطر يتبعه صحو مفاجئ ثم مطر بعده مباشرة، الطقس لا يستطيع ضبط مزاجه، واجهني التوتر وضيق النفس فور دخولي باب المنزل، الشحنات السلبية كانت تحوم براحة في المدخل، وتحتدم في غرفة الجلوس حيث إليزابيث وهذا الجورج، أعتقد جازمة أنه يصغرني بعام أو أكثر، حتى وإن كان تكوينه الجسماني يبديه كبيرا مع التجهم الذي سرق ملامحه وسيطر على فمه مزموما، عيناه في بحث دائم كأنهما عينا رجل بوليس، شعره المعقود ذنب فرس صغيرة بآخر جمجمته، ووشم فوق أعلى عضلات ذراعه لم أستطع التحقق من شكله، قنبلة صوت ألقاها أمام تقدمي نحو الغرفة أربكت خطواتي، تجمدت كأحد تماثيل الشمع في متحف (مدام توسو)، غادر اللون وجهي وزرعت عميقا في أرضية الطريق للباب، اعتقدت أن أحد أفراد أسرتي عثر عليَّ، وأنه ينتظر ليقتلني، ولكن عيونه الضيقة خنقت تفكيري حتى لم أعد أستطيع الهروب منهما، ما كل هذا الحقد، هذا الغضب، ما كل هذا الألم الذي يسكنهما؟

شيء ما في داخلي كان يدق بعنف، كأن قلبي يريد مغادرة جسدي ولا أعلم ما السبب.

- Come on dear حاولت إليزابيث طمأنتي my son George

لم تنظر ناحيته، كانت مهمومة، كأن جبلا سقط فوق ظهرها، منذ التقيتها لم أشاهد ظهرها بهذه الدرجة من الانحناء: my dear Titania عرفته عليّ.

نظرت إليه وحاولت الابتسام ولكن: هذا الجورج يكرهني بلا أدنى شك، ودون علم مني عن السبب.

- She will be exploited you she's Arabic women![1]

لوى شفته العلياء بقرف وزمجر: كيف تستقبلين هؤلاء الرعاع في منزلك... لقد كانوا عبيدا لنا؟

- .Watch your lips صرخت بوجهه بحدة.

(1) سوف تقوم باستغلالك، إنها امرأة عربية.

احتد النقاش بينهما وأنا كرهينة فقدت السيطرة على مجرى حياتها، لم أستطع التدخل، كان شأنا خاصا بين الأم وابنها، حتى لو كنت محور الخلاف، بدا سور عال بيني وبينهما، شرد ذهني ولا أعلم أين وصلت، لم أعد في الغرفة معهما، هام تركيزي ودخل في عالمه بعيدا عن كل ما حوله، الخيال في بساتين معلقة بين السماء والأرض، وشلالات تهدر من الغيوم ناصعة البياض نحو أرض بعيدة، وأنا فوق غيمة ممددة أداعب الفراش محاطة بعرائش ياسمين وعصافير محبة.

عادت روحي لجسدي فور صراخه الحاد...

- If you don't kick her out, I will [1]

ظننت لوهلة أنه لم يتحدث ذلك الحنق... خنق شفتاه حتى ابيضتا.

- How dare you?[2]

(1) إذا لم تطرديها سأقوم انا بذلك.

(2) كيف تجرؤ.

نهضت بصعوبة حتى أنها توقفت وسط نهوضها، خيل لي أنها ستسقط، تماسكت ونظرت ناحيته دامعة العينين:

- ما شعرت بالأمومة من قبل كما شعرتها في حضورها.

اصفر وجهه.

- إن كان هناك شخص يجب أن يغادر فمن المؤكد أنه غادر منذ توفي والده، ولم يعد له مكان هنا في منزلي.

تحول الجو المحيط لكتلة ضخمة من الثقل صعق ألسنتنا، لم أشعر بالغضب منه، كما لم أشعر بأنه قلل من أهميتي، أو أهدر ولو ذرة من كرامتي، أعتقد أن من حقه أن يخاف على والدته حتى لو اختار أن يقضي ما تبقى من حياته بعيدا عنها، كل له أسبابه، حتى وإن لم يفصح... وقد عذرته:

He is right, I should live Elizabeth[1].

الحياة ساحة للقتال، حتى وإن وقفت في مواجهة مشاعري، رغبتي الكبيرة في البقاء مع إليزابيث، ومحاولة أن أجنبها

(1) إنه محق يجب أن أغادر.

الاصطدام بابنها مرة أخرى دفعني لمغادرة المنزل باكرا، وضعت نسختي من المفاتيح فوق منضدة المطبخ، وغادرت دون أن أحدث جلبة... خرجت هادئة بعكس داخلي الذي يفور كمرجل فوق النار.

إليزابيث/ بريطانيا

لم أره من وقتها، لا أعلم إن كان في عالم الأحياء أو في عالم الأموات.

حاولت البحث عنه، أصدقاءُه لا يعلمون عنه شيئا أيضا، أخبروني أنه تطوع في الجيش المتوجه للعراق.

فقدتِ عائلتك وهم على قيد الحياة، وكذلك حدث لأبني.

أي تشابه غريب هذا!

تيتانيا/ بريطانيا

أعمل نادلة في مقهى قريب من حديقة (هايد بارك)، حصلت على الإقامة بعد أيام من تركي لـ إليزابيث.

هل يمكنني توجيه سؤال في منتهى الجدية لكِ؟! لماذا فقدت شغفي بما سعيت للحصول عليه؟.

لماذا لم أشعر بالفرح عندما سمعت موافقتهم على قبولي لاجئة، ومنحي امتيازات المواطنة البريطانية الكاملة، حتى وإن لم أحصل على الجنسية بعد؟

شيء غريب!! أن أسعى بكامل طاقتي للحصول وتحقيق ما أصبوا إليه، أن يزيد إصراري لنيله كلما صعب عليَّ واستعصى، وعندما أمتلكه أفقد رغبتي فيه!

- ألستِ سعيدة؟

وجه لي المسؤول في قسم الهجرة سؤاله بعد أن زف لي خبر قبولي.

اصطنعت ضحكة:

- بلى.
- إذا ما هذا البرود.
- ما زلت أجهل سببه.

تعتاد النفس الفقد، يصبح الامتلاك مهددا بالزوال، هذا يجعلك في ترقب لخسارته منذ لحظة امتلاكه، أيمكن أن يكون هذا هو السبب! ربما.

مزاجي... مزاجيتي، خمولي... كسلي رغم الحركة الإجبارية لأنفذ طلبات الزبائن.

أحاول المحافظة على راحتي التي شعرت بها منذ وطئت قدميَّ هذه الأرض، إلا أن شعورا داخليا بالنقص آخذ بالاتساع، ما الذي فقدته!

أستغرق الكثير من الوقت في البحث عنه، في رحلتي للتواصل معك أضعت شيئا ما، يشعرني بالنقص، هلا دللتني عليه؟

لن تفعلي أعلم، ولكن لن أتأخر في العثور عليه، أعدك.

لا يهمني لو سقط نيزك على الأرض، أو جاء زلزال فتت البشر قبل الحجر، لا فرق عندي إن كانت الفترة القادمة وردية أم

شفافة لحد التشويش، أقف هنا فارغة... هيكل يجمّله غطاء خارجي دون ملامح... غطاء زاهٍ لداخل مكفهر.

ماري لا تترك مناسبة إلا وتتحدث لي عن يومها كاملا، تطلب الشاي بالليمون وبدون سكر، تجلس وحيدة في فترة استراحتها من عملها.

شقراء بعيون زرقاء، ووجه يملأه النمش، لا أحب النمش إطلاقا، تجنبت الحديث معها في بداية الأمر، أرد أقل مما تطرح، طويلة بتنورة قصيرة وجاكت رسمي أسود فوق قميص أبيض، اعتقدت في البداية أنه لباس خاص بشركتهم، ولكنها أخبرتني من ضمن ثرثرتها أنها تتعمده كي تصبغ على نفسها صفة الجدية، وأنها على قدر من المسؤولية. لم أسألها أين تعمل، ولم تتطرق هي للموضوع.

حاولت تجنبها في كثير من الأحيان، لكني أجد نفسي أمامها في حركتي الدائمة لخدمة باقي الطاولات.

- You have Arabic features[1]!

(1) ملامحك عربية.

عبرت لي بعد أن أخذت وقتها في تأمل طال من بُعد حاولت إخفاءه فور اقترابي منها.

لم أشعر منذ ما يقارب العام على وجودي على هذه الأرض أني أرغب في الحديث عن ما رميت خلفي، فقط هي (إليزابيث) من تركت في داخلي فراغا لا أجد طريقة لملئه، ومع هذا لم تكن لدي أية رغبة بزيارتها، أو حتى زيارة الحي الذي تقطنه، خوفا من أي معلومة تشير إلى أنها ليست بخير، رغبتي بالاحتفاظ بصورتها كما تركتها لا تشجعني لاتخاذ أية خطوة من شأنها تشويه هذه الصورة، لهذا التزمت البعد.

أعلم أنه ليس سببا وجيها لعدم زيارتها، ولكن شيء ما في داخلي يحاول إبقائي بعيدة... ولا يضايقني ما أفعل.

قابلت سؤالها بابتسامة فأكملت:

- But you have English cold-blooded.[1]

- سألتها لأغير الموضوع:

(1) لكنك تملكين البرود البريطاني.

- Do you want something else[1]?

- أجابت ببطء كأنما تذكرت شيئا ما.

- No thanx.

اخترت طاولة خارج المقهى تطل على الحديقة، رذاذ المطر كان يبلل المقاعد، الجو الغائم يزيد من شعوري بأن هناك خطبا ما، تعلقت بلندن كثيرا، كيف لا وهي تحاكي مزاجي وداخلي.

الضباب والمطر ممزوج بالجو الغائم أغلب العام، البرودة اللاسعة تلامس أعماقي وتنظم الهدوء فيه، جربت الشاي بالليمون، لم أستسغه، الطعم الحامض يخفي نكهة الشاي، دفعت فنجاني بعيدا، أخذت أقلد أسلوب (ماري) في الثرثرة:

- You look like a stranger and weird.[2]
- Maybe I'm lost my soul.[3]

تنهدت ونظرت حولي، الوقت مغيب الشمس، والشوارع مبتلة.

---

(1) هل تحتاجين شيئا آخر.

(2) تبدين غريبة الأطوار.

(3) أظن أني فقدت روحي.

تركت مقعدي، تناولت حقيبتي، سلكت طريقي داخل الحديقة، المساحة الواسعة أمامي تضيق، تأخذ شكل دهليز تطبق جدرانه عليّ كلما خطوت، شعوري يتحكم بمدى اتساع أو ضيق المحيط، كأنما يربطه بحبل على طريقة (الكاوبوي)، فإذا ما شعرت بالضيق شده حتى اختنقت، أما في لحظة الفرح أرخاه حتى تتدفق دفعات الجنون والصخب لتنكز حواسي... توقظها من ضيقها ومللها.

شعور من قلبي يدغدغ القشرة المحيطة به، يدق عظام القفص الصدري واحدة تلو الأخرى، يحفر عميقا في صدري، يملأ كل حفرة حنينا، ينساب بغزارة حتى أغرق أطرافي، قد تكون الزهور المبتلة هي السبب، نظرت حولي، أو ربما مياه البحيرة المتموجة، الطريق المعبد بالحجارة الملساء رطب.

كلب منزوع الطوق من يد صاحبه يروح ويجيء بيني وبين مالكه، الشمس خلف الغيوم تطل بخجل، كنت أفيض، اغرق حواسي بالروتين، اغرقها بشوقي لـ إليزابيث، وذاكرتي المثقلة بجثث ذكرى من دفنتهم أحياء.

رميت نفسي بين أحضان فتى يقاربني بالعمر، طويل يلبس (T-SHIRT) مكتوب عليه (FREE HUG)، نفس عبارة اللافتة التي يحملها بين يديه.

عصرته بين ذراعي، التصقت به حتى بدأ يدفعني بهدوء، غريبة تحتضن غريبا، تخلع همها بين ذراعيه، ترميه عند أقدامه، لا يتذكرها إذا انتهت، ولا تتذكره بعد أن تبتعد، حتى أوجاعنا غريبة، تأتي بغتة دون سابق إنذار، وتغادرنا بعد أن تجري زيارة تفقدية لكل جزء من جسدنا وأعصابنا، على حده، تستنزفها ثم تغادر مخلفة الخراب.

أعلم دون أن تحاولي مواساتي أني لا أعاني من مشكلة، ولكني فتاة، كل ما شهدته في حياتها كان حربا باردة بين رؤوس السلطة في منزلها، في مجتمع شبه منغلق، لا تعرف إلا تقاليده، لا تطبق إلا عاداته، برمجت على هذا، لذلك أجد من الصعوبة التمرد على المألوف، لكني لا أعتبر مثل هذا الفعل خادشا للحياء، الناس هنا يعبرون عن مشاعرهم الحميمية في الشوراع بكل راحة، ينسلخون عن الواقع فور وقوعهم في شرك الحب، الحب!

نسيته.

لم أفعل في الحقيقة، بل وأدته أو لم ألق له بالا، خنقته بإهمالي وإسفافي له، حاولت تجنبه، لكني أشعر به اليوم يحرق ما تيسر له من أوصالي، بحب هذه المدينة وإليزابيث، لا يمكنني أن أؤطره وأحجزه في شخص رجل، من قال أن الحب لا يقتصر إلا على مفهوم نشوئه بين رجل وامرأة، لا ألغي الفكرة، لكنه أشمل، من المعيب أن نحتفظ به في هذه الدائرة المغلقة، وفور خسارتنا للشخص المعني نتمنى لو أنه لم يوجد قط.

ينقصني التركيز، أتفهمين... أعيريني القليل منه، فمنذ بدأت ورديتي قمت بسكب ثلاثة أكواب من القهوة فوق الأرضية، حتى بدأ مالك المقهى يتأفف، إن بقيت هكذا سيطردني لا محالة.

ماري برفقة شابين عقدت شعرها للخلف ذنب فرس، ترتدي بنطال جينز، وقميصا يكشف عن ذراعيها بالكامل، اندماجهم بدا واضحا... لبيّت طلبهم.

جذبني الفضول لسماع حديثهم بشكل متقطع، يدور حول مشاركتهم في حملة إنسانية إلى غينيا الجديدة، في بعثة إنسانية لتقديم الخدمات للقبائل هناك ضمن برنامج تشرف عليه اليونسيف، هكذا فهمت.

رحلة غينيا أعمل خنجرا في خاصرة النية حتى لا يتركها تنسل، وإن فعل أدماها الندم، تأهبوا للمغادرة، ولأول مرة ماري لا تحادثني.

- Mary.
- Yes dear.
- هل أستطيع مرافقتكم إلى غينيا؟

نظرت مطولا داخل عيني تبحث عن جديتي: لن نذهب في رحلة سياحية، قد نتعرض للخطر، أو ربما للقتل هناك.

القتل! رنت الكلمة ناقوس خطر على بابك، قد أخسر حياتي يا أنا، قد لا يحدث، بضع ثوان... زادت ماري تأمل وجهي فيها، قلت بسرعة:

- I don't have any thing to lose it.(١)
- Even your parents.(٢)

فضولها الإيرلندي سيشبع الآن: أنا يتيمة.

---

(1) ليس لدي ما أخسره.

(2) حتى والديكِ؟.

ضمتني مواسية وموافقة بنفس الوقت.

أخبرتها

- But I have a problem.[1]

ضيقت عينيها، وأرخت سمعها لي:

- I am a refugee and I haven't received a passport yet.[2]
- I knew.

قالت بحماس، سنتحدث في هذا الموضوع لاحقا... لا توجد قضية لا حل لها.

تخيلي اندفاع هواء منعش مرة واحدة في ثقوب نفسك المغلقة، ينفثها خارج مسامك كانفجار يأخذ طريقه حول جسدك، يطرق بإصبعه العالق في ثنايا روحك من سأم، ويرفع درجة شغفك لآخرها، كله دفعة واحدة، إنه جنون... تدفق الأدرينالين إلى قمته.

---

(1) هناك مشكلة.

(2) لا أملك جواز سفر بريطاني، ما زلت أعامل كلاجئة.

اسمعي... حدث معي أمر أغرب من الخيال، أنا لا أصدقه، لا أستطيع حتى حشوه في عقلي، وإجباري على استيعابه، سأحكيه لكِ وسترين أن الحق معي...

كنت أقف خلف نافذة شقتي قبل ثلاثة أيام، حين لمحت آنسة أو خيل لي أنها كذلك، قدّمت جذعي للأمام، ثم عدت به للخلف مرة واحدة، أمعنت النظر، لم يكن ظلا ذاك الذي يسترق النظر إليَّ من فوق الرصيف المقابل للعمارة التي أسكنها، تواجدها في شارع مزدحم بالمارة كشارع اكسفورد لا يعد غريبا أبدا، في البداية اعتقدت أنها تنتظر الحافلة، أو أنها تبحث عن محل قريب، لكنها نظرت إليَّ مباشرة، ورفعت يدها تلوح لي، الظلام قد حل، ومع هذا رؤيتي لها واضحة بسبب إضاءة الشوارع، دفعت بوجهي خارج إطار النافذة: يا آنسة، رفعت يدي ببطء ألوح لها.

خفضت كفَّها: يا إلهي كم تشبهني، وكأنني أشاهد لي انعكاسا كاملا في مرآة الواقع، تحركت الآنسة من مكانها بعيدا عن الرصيف، نظرت يمينا ويسارا لتتأكد من خلو الشارع من السيارات، تقدمت للأمام حتى أصبحت ملامحها أكثر وضوحا، وبغمضة عين تبخرت كفكرة قبل التقاطها.

ابتعدت عن النافذة قليلا، ثم عدت أنظر إلى ذات البقعة: أتخيل، نعم أنه مجرد خيال فقط. حدثتكِ في تلك اللحظة... ألم تسمعيني!

المهم عدت وأطللت من النافذة مرة أخرى: لم يكن إلا انعكاس ظل لوحدتي، أغلقت النافذة، توجهت إلى المطبخ الضيق في زاوية غرفة هي كل شقتي، ودورة مياه لا تتسع إلا لجسدي، إبريق الحليب الطازج كان يفور فوق الغاز بعد أن نسيت أنني أشعلت النار تحته، الإنارة بفعل لمسي لمفتاحها بدد الظلمة الجاثمة في زوايا الغرفة، رفعت الإبريق، صببت لنفسي كوبا، تركت بقايا الحليب على أرضية الغاز: سأنظفه في وقت لاحق.

اتخذت مكاني فوق الكرسي قبالة النافذة، قربت الكوب من فمي، لمحت من فوق حافته الآنسة التي ابتلعها خيالي قبل قليل تلوح لي، كأنها تطلب أن أفتح النافذة، رفعت الفنجان ليحول بين نظري وجسد المرأة، ثم أنزلته لعلي في حركتي هذه أمحو الجنون الذي رافقني خلال الفترة الأخيرة، استمرت بالتلويح لي، عدلت من جلستي حتى حال نصف جسدي بيني وبينها، زاد إلحاحها مما دفعها للقفز وابتداع حركات لتلفت انتباهي، استرقت النظر

بطرف عيني، لمحتها تنظر حولها مرة أخرى وتقطع الشارع تجاه شقتي، تخيلي شعور الرعب الذي تمكن مني، حينها وقفت ونظرت بخوف ناحية الباب، تبع نظرتي سكون ثقيل كفَّ تركيزي، مع أنني امتلكت توقعا مسبقا أن هذه الآنسة ستدق الجرس، إلا أني أجفلت عندما ألحت الطرق، تقدمت: من هناك؟!.

لم أتلق ردا، زاد خوفي حتى أضحت خطواتي ثقيلة، الغريب أنه كلما تقدمت خطوة خف الطرق، تشجعت وأمسكت المقبض، رفعته للأعلى ثم تأكدت من أن الباب مقفل بالمفتاح: من هناك؟! أعدت سؤالي بقلق، لم أتلق أي رد... وضعت أذني استرق السمع، قابلني الصمت.

تحلي بالشجاعة... ليس هناك ما يدعو للقلق، أخذت نفسا عميقا، حركت الباب ونظرت من الشق الصغير خلفه: هل هناك أحد؟ ردد الصدى صوتي، وأعاده قذيفة فجرت الرعب في حواسي، قشعريرة غزت جسدي، تيار بارد سرى في أعلى رقبتي وتسلل إلى أخمص قدمي، لم يكن هناك أحد: أنتِ يا آنسة.

فتحت الباب على مصراعيه، وقفت في البهو الفارغ حتى آخره، لم أر إلا أبواب شقق مغلقة: ما تفعلينه ليس مضحكا، صحت وجسدي يرتجف خوفا، إن كانت الآنسة هلوسة، فالطرق فوق الباب لم يكن كذلك.

أوصدت الباب، وبعد أن وصلت إلى منتصف الغرفة عدت مهرولة ناحيته لأتأكد من أنني أقفلته.

- أتخيل أنها مجرد أفكار غريبة بفعل الكوابيس التي صرت أشاهدها مؤخرا، شعور الفزع والتيه المزروع داخلي، هذا كل ما في الأمر.

كوب الحليب الذي تركته على الطاولة فارغا!

وقفت أتأمله: هل شربته! لعلي نسيت ذلك، اليوم ليس يومي، كل ما فيه غريب يدعو للريبة.

حملته للمطبخ وضعته في حوض غسيل الأطباق، في طريقي للخروج لفت انتباهي الغاز، رأيته نظيفا من بقايا الحليب، متى حدث ونظفته!

لا أذكر أني فعلت، حاولت تدليك نهاية رأسي لعلي أخفف من اجتياح القشعريرة المتوالية له، نظرت في أنحاء الغرفة، وجدتها مغلقة النوافذ موصدة الباب: يجب أن أقوم ببعض الفحوصات المخبرية غدا، أعتقد أني أعاني من نقص حاد في فيتامين (B12).

الساعة فوق الحائط تشير إلى الحادية عشرة ليلا، حاولت النوم كي أستطيع النهوض إلى عملي في اليوم التالي، تقلبت كثيرا في فراشي، عادت تلك الآنسة فوق الرصيف تحتل تفكيري: ماذا عساها تكون؟ ليست من بني البشر، مجرد خيال أسود استنسخ ملامحي حتى يبث الفزع في ليلتي، ما أدراني إن كانت فعلا لطيفة! غفوت وما زالت يد الآنسة تلوح لي.

تعقيدات الحماية التي تعلو السور تشير إلى أنني في وسط منشأة عسكرية، لكن ماذا يفعل كل هؤلاء المدنيين هنا؟ ولما يحتجزونني؟ نظرت أبحث عن وسيلة للهروب، تصاعدت حولي أصوات تستنكر موت أحد الرجال الطائرين، رجل ضخم بملامح قاسية نبت فوق ظهره أجنحة طائر كبيرة جثا قرب الجثة، حملها عاليا بعد أن فقد الأمل في إنعاش جثة زميله الملقاة على

الأرض، ارتفع في الفضاء وبدا يتلاشى حتى لم يبق منه إلا نقطة في وسط سماء بعيدة.

تسلقت السور وهربت إلى شوارع عريضة تأخذني إلى أي مكان عدا هذا السجن، تبعني العديد من العسكر فوق سياراتهم السوداء المكشوفة، اختبأت خلف غصن صغير، تعداني العسكر دون أن يلحظوني، الخيمة الضخمة المشيدة أمامي دفعتني لأتأكد من هوية المستظلين بها، وقفت فوقها وأعلنت ترشحي لمنصب كبير، استدعى الرجل الطائر ليحوم فوقي، وجموع الرجال في الخيمة يتساءلون عن كيفية صعودي أنا الفتاة فوق الخيمة مع وجود الرجال فوق، نظرت للسماء، كل ما شاهدته انقضاض الرجل الطائر عليَّ، تبعه صراخي، ثم شهقة... أيقظتني من كابوسي.

وسادتي غارقة بالعرق المتصبب من وجهي، المتدفق من شعري، وزلزال من الخوف يهشم داخلي، يرافقه لهاث كأني قطعت ألف ميل راكضة مرة واحدة، أشعلت الضوء المثبت إلى جانب سريري، الساعة تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل: نهار غريب وليل مفزع، ستقتلني الوحدة بلا شك.

بقيت جامدة في سريري إلى أن أشارت الساعة للسابعة صباحا، حركت جسدي المتصلب خوفا بصعوبة، الستائر المنسدلة فوق الشباك الوحيد في غرفتي حالت دون رؤية مفترق الطرق، الخوف القابع داخلي منعني من إزاحتها، ارتديت أول ما وصلت إليه يدي، لم أراع تناسق الألوان كما أفعل عادة، جل همي مغادرة شقتي بأقصى سرعة: أعتقد أن المنطقة مسكونة... سأعمل على البحث عن شقة جديدة حال عودتي من غينيا.

وجدتها تنتظرني أمام المقهى، أقصد ماري، عرفت أنها لن تتوجه للعمل اليوم، وأنها انتهت للتو من جولة هرولة في الحديقة من لباس الرياضة وقارورة الماء أمامها، ثبتت سماعات الآي بود في أذنيها، أعتقد أنها تسمع أغنية حماسية بسبب حركات جسدها النشطة المرافقة للموسيقى.

حالما وقفت أمامها، رغم إغلاقها لعينيها، نظرت إليَّ مباشرة، أوقفت الموسيقى وتجهمت:

- You didn't get a sleepy fit.[1]

(1) ألم تنامي الليلة الماضية.

- In interrupted form.[1]

جلست قبالتها وبدأت حديثها، رأسي الثقيل لم يحاول أن يبذل جهدا من أجلي، أن يضغط على نفسه قليلا كي أفهم فحوى حديثها، تطرقت للسفر، عن أنني أستطيع الحصول على جواز سفر مؤقت للسياحة كي أستطيع السفر.

- انتظري عزيزتي حتى أحضر فنجان قهوة، أشعر أنني ما زلت في مستوى دلتا[2] للنوم، هل أحضر لكِ شايا بالليمون؟.

- no thanks

ملأت كوبا كبيرا من الإسبرسو الثقيل، الرشفة التي أخذتها صدمت حواسي بقوة، كأني بدأت أتدرج بالصحو، رشفة ثانية وقعها لم يكن بنفس القوة، لكنه ساهم في دفعي للوقوف على حافة الصحو.

أظن نفاد صبر ماري كان السبب في وقوفها إلى جانبي أمام بار المشروبات، دست أمامي ورقة تحمل عنوانها ورقم هاتفها:

---

(1) ولا حتى قليلا.

(2) مرحلة من مراحل النوم ترتخي فيها الأعصاب والعضلات والخلايا، ويبطؤ عملها، إلى أن يدخل الشخص فعليًا في مرحلة النوم العميق.

- أنتظر هاتفا منكِ لنتحدث، لا تسأليني لما أنا مهتمة بمرافقتك لنا، أنا نفسي لا أعرف، قد تكونين ملاكي الحارس.

بقية اليوم كان روتينا قاتلا، الغريب أن الضباب فرش سجادته وأبى مغادرة أرض لندن.

أشتاق إليزابيث، أشتاق حنين، أشتاق إربد...فقط.

أهلي!... ماتوا فور مغادرتي دون شعورهم بالرحيل، هل تستوعبين أن تغادر فتاة عربية بيت أهلها في وضح النهار، وتنتقل إلى مدينة تبعد مدينتها بساعة ونصف تقريبا، تنتظر أيضا ساعتين في المطار، ثم تستقل طائرة لبلاد أيا كانت البلاد، دون أن يشعر أبواها بغيابها!

اليتم أقل ما يمكنني الشعور به تجاههما.

فتاة الرصيف لا تفتأ تظهر أمامي في الحديقة على مقاعد المقهى الذي أعمل به، كلما اقتربت منها اختفت، كأنها لم تكن، هذا أكد لي أني أعاني خطبا ما، هلوسات بصرية أو ذهنية... لا أدري.

ليست هلوسة، بات الأمر واضحا، فقد تطور أمر فتاة الرصيف، كلما انقضى يوم يقربني من السفر، زاد إلحاحها في تعقبي وقطع الطريق عليَ، لم تقترب مني ولا مرة واحدة، تظهر وتختفي كالومضة البطيئة، حتى أضحت تتحدث لي دون أن تنطق بكلمة، بكلمتين فقط: «لا تذهبي».

اليوم المنشود

لم يغمض لي جفن في الليلة الماضية، الحماس قض مضجع النوم، حمل جيتارا وعزف بجنون تحت النافذة، سأنام في الطائرة.

حقيبة ماري كانت كبيرة الحجم، تساءلتْ:

- Where is your bag?[1]

أشرت إلى حقيبة ظهري: Just this

- قد تحتاجين لأكثر من حقيبة ظهر يا عزيزتي.
- إن لزم الأمر سأشتري من هناك، في السفر قليل من المتاع كثير من التنقل.

رافقنا جون، ممرض يعمل في مستشفى(Royal London Hospital) قسم العظام، شاب ضعيف البنية، هش، تخشى أن تلمسه فينكسر، في أواخر العشرين من عمره، بريطاني الجنسية.

توماس، بلجيكي الجنسية، ليس بالطويل ولا بالقصير، لا أعرف كيف أصف طوله، جسمه رياضي، متوازن نوعا ما، قد يكون سبب توازنه عمله في صالة ألعاب رياضية.

---

(1) أين حقيبتك؟.

أما ماري، فقد تبين أنها تعمل في محطة تلفزة إخبارية، لم تفصح عن اسمها، كما لم يسألها أي منا، أعتقد أن الجميع يعلم إلا أنا، وهذا لا يضايقني، لأنه لا يهمني.

قبل ركوبي الطائرة شاهدت فتاة الرصيف تقف خلف مضيفات الطائرة، تساءلت كيف استطاعت أن تدخل هناك قبل أي راكب منا، وبشكل غير متوقع.

بعد أن اتخذ كل راكب مجلسه وربط حزام الأمان، لم يتبق إلا إعلان كابتن الطائرة أننا على وشك الإنطلاق، صدح صوته عبر مكبرات الصوت معتذرا لأننا مضطرون إلى التأخر قليلا من الوقت بسبب عطل طارئ تعرض له باب الطائرة، هل من الممكن أن يكون السبب فتاة الرصيف، غريب!

- لا تذهبي، هيء لي أن شفاه المضيفة تتحدث لي به، نظرت ناحية ماري المجاورة لي في المقعد، لكنها مشغولة في الحديث مع توماس في المقعد خلفنا.
- الصوت تكرر، والنهي أصبح أكثر إلحاحا، ينطق به الهواء في أذني مباشرة.

أنتِ أيضا!

لماذا لا تريدون مني أن أرافقهم في سفرهم؟
تركت الأعراف الشرقية خلفي، لم يعد هناك من يملي علي أفعالي، ويراقب تحركاتي، لماذا لا تريدين سفري؟
لا تتفوهي بالتفاهة وتخبريني أن هناك خطب ما، هذا غير صحيح.

- لماذا تصممين على منعي؟ كلما سنحت لكِ فرصة ألقيتِ اللوم عليَّ، وتتهمينني بأني عاقة لوالدي، وتنعتينني بالانسلاخ عن جذوري، عليكِ اللعنة، أن أكون بلا جذور لأهون مئات المرات من أن تربطني جذور هشة تتسبب بالقضاء على مستقبلي نفسيا قبل أن يكون اجتماعيا.
- آه، الآن فهمت، أنتِ سبب وجود ابنة الرصيف تلك لمنعي من المضي في طريق استقلالي وحريتي.

يا الله كيف سمحت لكِ بالتحكم بمجريات حياتي، وأفسحت لك المجال لمناقشتي بما يصح أن أفعل وبما لا يصح!

حتى لو كنتِ نفسي وضميري، حتى لو كنتِ الأنا، لن أسمح لكِ بعد اليوم بالاطلاع على ما أفعل، أو حتى أنوي أن أفعل، إلا بالقدر المسموح لكِ بحكم أننا نستخدم نفس الجسد،

سترضخين لما أريد بما أني المتحكمة بعقلي، المالكة لجسدي وليس أنتِ.

لن أجيبك عن مكان حنين ومصيرها، لا تبدأي باستعطافي، أتعلمين... اذهبي للجحيم.

غينيا

إن كان خيالها في النصّ لازما، فهي لم تجرب أن تقلّبه فوق نار (لو)، أعتقد جازمه أنها لم تفعل؟

في قرب (لو) من انفعالاتها وتهيؤاتها، وقوفها على طرف محايد نجاة من انخراطها في مجتمعات وجدت نفسها في إحداها، وحاولت أن تنبت في آخر، ظنّا منها أن رحلة بحثها عن ذاتها ستنتهي في تلك الأرض التي اختارت.

تريد إعماء النظر عما حولها بدلا من علاج ضعف البصر في ذاتها، ضبط مشاعرها وكبحها بدلا من تحريرها، تخشى الانطلاق خوفا من التسبب بفقدان وعي حواسها، ومن ثم تتلكأ في الاندماج.

أن تحيا بشكل طبيعي بعيدا عن وساوس الفقد الذي لازمها طوال الطريق، حتى تقوقعت.

في وسط بحثها، نسيت أنها كيان بيده القرار، لا يحتاج شجاعة في مواقف بسيطة كي ينطلق، جعلت من السهل صعبا، من مشاكل الحياة عقبة لا يمكنها تخطيها، تحكّم بها قمعها... فقتلها، سبّب هلوسة قسّمت انعكاساتها الداخلية إلى شريط طويل يحمل

قصاصات صور فوتوغرافية ذهنية حاولت تمزيقها بكل ما أوتيت من ضياع، والمضي دون هوية... دون ماض رغم إنكارها... ماض كانت تمحوه كأنما لم تمر به يوما في عمرها، لم تعد إليه حتى من خلال ذاكرتها.

لكن لنقرّ بحقيقة أكيدة... ذكاءُها كَمُنَ في إعادتي للحياة من خلال نصّ ثريّ بتفصيل مشاعرها دون تزويق وتزييف، برِّيَّة وبريئة في ذات الوقت، في منتصف عالم علمي واقعي لا يتقبلها، بل ينبذها.

الغريب في نفس الوقت... بحثها المستميت عن لقاء يجمعها بي، وتقصّيها مصدر جديد لبعثي حتى وإن كان على الورق، ثم العمل على إنكاري وإلغاء وجودي.

هي لحن الحياة، هي بعث الموت، أداة الامتناع للامتناع، (لو) منيتها.

لم تنقلب الرواية، ما زلنا بين أوراق تيتانيا، ولكن سأكملها أنا سلمى، ما حدث معروف، أما غير المتوقع أني سأكمل الحديث عنها، ليس بصوتها، ولا بتفكيرها، الـ(أنا) الخاصة بها، لست ذاتها مع أني اعتبرتها ذاتي.

كيف يمكن لامرأة مسلوبة الإرادة كـ(تيتانيا) أن تسخّر الكون لخلقي، نقيضتها، نعم هذا صحيح، وإن كان إنكارنا لهذه الحقيقة موجّه نحو العكس، شيء ما في ضعفها كان شبك صيد رُمي كاملا فوق انتباهي واصطاده بسهولة، لم أحمل لها أية مشاعر، غريب أن أقف على مشارف المسؤولية الكاملة التي ألقيت على عاتقي نحوها، وبين محاولتي التخلي عنها.

لماذا؟ لا أعرف حقا، ولم أبحث، ترك بعض المشاعر دون تفسير يؤدي إلى اكتشافها دون عناء.

تيتانيا -في كونها المنفصل- كوكب حاولت اكتشافه، عين حاولت السفر بعيدا عن عيوني، كيان انفصل عن كل ما هو أرضي، وعلق كالثريا في سمائي، تيتانيا لم تكن من طين... بل كانت ملاكا اتخذ من جسد هالك ملاذا له.

لأول وهلة ينساب التوجس منها نحوك، تلقائيا ترتد للخلف محاولا تفادي نية الدفاع، حاولت تجنبها، بل لم نتبادل سوى كلمات فوق الورق، وحديث مشحون بالعصبية بيننا نهايته كانت في الطائرة حيث أنهت كل ما يربطها بي، وألغتني بإغلاق دفتر وجودي.

لم تفلح محاولات ماري لدمجها مع المجموعة في حضوري، مقاومتها تصديق بعثي على الرصيف بإنكارها أني بنت أفكار خوفها، الألم المستهلك إرادتها، روحها التائهة، تجنبها لقائي وما تبعه من التصادم والنفور سبّب عدم اكتمال رغبتي.

بعد انطلاقنا بوقت قصير سمح لي الفراغ بين مقاعد الطائرة رؤية دفتر ميلادي مغطى بجلد بني اللون، تعجبت أن صفحاته لم تتمزق بفعل عصبيتها بالكتابة، ختمت إغلاقه بعصبية أيضا، كلمات غريبة لم أفهمها، تمتمت وشتمت وكأنها لا تتحدث من فمها المزموم.

تحدثها بعشوائية تارة وتارة أخرى تحدثت إليّ، ما دفع من حولها لليقين أن بها مس من جنون.

وصلنا غينيا الجديدة، فريقها المكون من أربعة أشخاص هدفه وبالتعاون مع اليونيسف القيام بحملات توعية للأم للاهتمام بصحتها، والعناية بطفلها، وتسجيل الولادات، والتركيز على أهمية المطاعيم وخاصة المتعلقة بشلل الأطفال، البرنامج كان شاملا، ولمدة خمسة أشهر ما لم تزد.

كانت بينهم، ولم تكن معهم، ساهمة أغلب الوقت، تتفادى الحديث بشكل عام، ومعهم بشكل خاص، ماري الحنونة عاملتها كأختها الصغرى، سمعت توماس يهمس مرة لها: لماذا تدارينها!

- نحاول تقديم المساعدة في بلاد غريبة لشعب غريب، هذه الفتاة تنزف أمامي منذ التقيتها، وأخشى أن أفقدها، أعلم أن لا صلة قرابة تربطنا، لكنني أشعر كأنها من دمي ولحمي، أتألم كلما طالعت وجهها الحزين، ولمست مدى الضياع الذي تحيا به.

ليست غريبة بقدر ما كانت، بعد أن صدرت منها التفاتة توجس ناحيتي، وزعت على أعماقي إشفاقا عليها غير متناه، نفرت مني... أظن أني شعرت بالشفقة تجاهها، بدا واضحا أنها نفرت، فقد كانت تتحدث مع المجموعة حتى تبتعد عني، تلهي عينيها عن مراقبتي، وتشوش سمعها عن همسي لها بأن تعود أدراجها.

بابوا غاية في الجمال، مزيج بين البدائية والمدنية، لن تتفاجأ إن ظهر أمامك مواطن من قبيلة ما تملأ وجهه الألوان، ويلبس أوراق الشجر على وسطه فقط، هكتارات من أشجار جوز الهند، وبعض أنواع الأشجار التي لم أستطع معرفة أسمائها.

جميعنا كنا نستكشف المنطقة، وحدها تيتانيا المندفعة لم تنظر حولها، لم يجذبها بحر أو شجر، ولا حتى حجر، تسبح في ملكوتها الخاص، تتوقف فجأة كلما ظهرت أمامها كمن يطالع شبح، تدقق النظر ناحيتي، ثم تتدارك نفسها وتكمل المسير بعد أن تنظر إلى ماري معتذرة.

الرطوبة عالية، والحرارة تخنقني، يناسبني كثيرا طقس بريطانيا البارد نسبيا، شبيه بطقس الأردن إلى حد ما، إلا أنه أشد برودة منه في الشتاء، في الحقيقة ليس من العدل مقارنة أية دولة بأخرى، فلكل بقعة على هذه البسيطة ما يمنحها جمالها المنفرد، وأنا أكتب هذه الكلمات تذكرت جمال تيتانيا، أخطر النساء تلك التي لا تعي أنها جميلة.

أدرك أن حديثي غير متجانس، العذر كله معي، فكلما زارت ذاكرتي شتتتها.

لم نتبادل الحديث في الفترة الأخيرة إلا ما ندر، انشغلنا في الانضمام إلى بقية الحملات كي يعرف كل شخص وظيفته في هذه البعثة.

أوكل لنا الجزء الأصعب، إقناع الأمهات بضرورة تعليم الأطفال وخاصة الفتيات.

شعوب بأكملها تنظر للمرأة على أنها خلقت للعمل المنزلي والزواج والولادة فقط، هذا يعني أننا رسل في بدايات بعثاتهم، يعني الكثير من المشاكل والصعوبات، التي لم تقتنع بأية منها تيتانيا.

أعود لأتساءل... كيف يجتمع التفاؤل والتشاؤم في نفس واحدة، كيف يجتمع العطف والقسوة في طبع واحد، هل يمكن لشخص قاسٍ أن يكون حنونا لدرجة انهمار دموعه فور رؤيته طفلا يعاني سوء تغذية!

الإرهاق الفكري في الأسبوع الأول المنقضي لا يصدق، تخيل أنك تحمل في يدك إزميلا وتحفر في صخر من صوان، بعض الأحيان يكون نقاش وعملية إقناع أحدهم أصعب بكثير من عملية الحفر، أو حتى النقر.

واجهنا الكثير من الرفض، قلة الحفاوة بنا، طردنا في كثير من الحالات، بعضهم وجد فينا عنصرا غريبا من حيث لون البشرة،

غرابة اللغة، اختلاف اللباس، توجس بعضهم، قرف الآخر، وأغلبهم حاول اكتشافنا بدلا من موافقته على رسالتنا، ما زالت بعيدة عني، لم أحاول أن أكسر حاجز نفورها، لكن أين تذهب الفريسة إن وقعت في شباك صياد.

بدا التوتر واضحا عليها صباح يوم ثلاثاء، حاولت ماري الاطمئنان عليها، وجورج حاول إضحاكها والتسرية عنها، توماس لم ينل إعجابها منذ البداية، فتقبلها لأي شخص كان يعتمد على رائحته، نعم رائحته، تملك حاسة شم قوية، نفرت فور اقترابه منها، بل أنها سعلت حتى استفرغت ما في معدتها.

وقفتُ خلف أحد المباني أنظر ناحيتها لأتأكد أنها بخير، نظرت في عيني مباشرة... صرخت بضعف وحِدّة في وجهي وشتمتني، سحب توماس ماري من ذراعها، بعيدا عنها:

- Are you sure she's not crazy?(١)

وجهت له نظرة لوم عميقة:

(1) هل أنتِ متأكدة أنها ليست مجنونة.

لقد أخبرتني أن هناك فتاة غير مرئية تلاحقها، لم يكن اعترافها سهلا، جاء بعد أن حاولت إيقاظها من كابوس كانت تصيح بفعله وتغرق في عرقها، تحدثت بطبع طفل لا يقوى على الدفاع عن نفسه، سألتني في حينها إن كنت أظنها مجنونة، لكني طمأنتها أننا في أوقات إرهاقنا وتوترنا تتهيأ لنا أحداث، نتخيل أشخاصا غير موجودين، تتبخر كل مخاوفنا عندما نأخذ قسطا من الراحة، لهذا ليس من العدل اتهامك إياها بالجنون.

غمرني شعور التعاطف ثانية، حاولت مرارا أن أبغضها، لكن شعورا خفيا في أعماقي جذبني إليها مرغمة.

الطريق إلى قبيلة هولي ويجمان[1] التي تقطن بعيدا بين الجبال وعر وموحل بفعل المطر، صعب علينا الوصول سريعا، لأول مرة تأخرنا لتأخذ تيتانيا قسطا من الراحة، لم يسبق لها أن تذمرت من طول الطريق، أو شكت تعبا، لكنها اليوم هزيلة كعجوز في التسعين، طلب منها جون أن تعود أدراجها لكنها أصرت على مرافقتنا.

(1) هي قبيلة في بابوا بغينيا الجديدة. يشتهر رجالها بكونهم المحاربين الأكثر شراسة في المنطقة.

انتقلنا بسيارات جيب مكشوفة أغلب الطريق، وأكملنا الوعر منها مشيا على الأقدام، تعدينا جبال ويلهيلم[1] نحو المستنقعات حتى ولدت لنا بيوت القبيلة من العدم، بيوتها المبنية من الأخشاب، سقوفها من سعف النخيل وأغصان أشجار جوز الهند، من يشاهد البيت يظن أنه مؤلف من غرفة واحدة دائرية، الإنهاك لم يفارقنا طيلة ذلك اليوم، تنفسنا الصعداء بعد مشي أربع ساعات متواصلة حتى وصلنا.

للأسف الاستقبال العدائي نصيبنا، بدأ المرشد بالتحاور مع ما يبدو أنه رئيس القبيلة، رجل ذو ملامح قاسية بأنفه الأفطح وجبينه العريض، شعره الكث الخشن المصفف على هيئة قبعة، اقتربت منه ونظرت إلى شعره عن قرب كي أستطلع طريقة تصفيف غاية في الإتقان والدقة.

أكثر من نصف أسنانه تساقطت، بين فتحات أنفه ثبت عصا طويلة رفيعة، لم يستر من جسده إلا عورته بما يبدو أنه سعف شجر جوز الهند، بدأ سكان القبيلة بالتوافد إلينا، نساء عاريات

(1) أحد جبال بابوا غينيا الجديدة يرتفع عن سطح البحر (٤٥٠٩م) ويعتبر أعلى قمة في الدولة، وهي جبال شديدة الانحدار وغاباتها كثيفة.

الصدور بشعور رؤوس خفيفة خشنة، منهن من تحمل طفلها، ومنهن من يحملن على ظهورهن سلالا صنعت يدويا تحوي غذاء، أو بقايا أفرع شجر لطهو الطعام، لم نصادف ما يدعو للتفاؤل، حاول المرشد السياحي شرح مهمتنا لرئيس القبيلة الذي زاد عبوسه فور جلوس تيتانيا فوق صخرة ملونة بألوان تم صنعها من الطبيعة.

على ما يبدو أنها جلست فوق ما يعتبرونه «إلاها»، لا أذكر كم من الوقت استغرقني لقطع المسافة من حيث يقف رئيس القبيلة حتى تيتانيا، كما لا أذكر هل طرت بها أم أني أخفيتها عن أعينهم لأتمكن من حمايتها وتحقيق هروبها من غضبهم، كل ما أدركه أني أمسكت يدها حتى وجدت أننا في منتصف غابة استوائية.

وسط محاولة الهروب بـ(تيتانيا) لمحت رمحا غرس بقوة في صدر المرشد، تدفق الدم قويا من قلبه، ثم لا أذكر إلا شجيرات من الأعشاب أدوسها بقدمي وتيتانيا تصارع بيديها أغصانا اعترضت طريقها.

كم من المسافات قطعنا! لا أدري، شل تفكيري، إننا تهنا في غابات غينيا قريبا من جبل عال جدا.

نظرت للخلف، لم أجد إلا وجهها الشاحب وهرولتها المتقطعة، الغريب أنها لم تطلب مني التوقف، أنا من فعلت، سقطت من شدة الإعياء على ركبتيها وأجهشت بالبكاء:

- It's my folt.[١]

لم أعترض، هو خطأها فعلا.

غير أني وصلت لمرحلة اليقين عدم تقبلها وجودي في محيطها: They killd them[٢]، علا صوت بكائها وعويلها، خشيت أن تدلهم على مكاننا، جثوت أمامها:

- We wish they don't.[٣]
- Relax they will find us if you still shout.[٤]

بدلا من أن تهدأ زاد صراخها، وأخذت تضرب بكفيها على وجهها وتشد شعرها، جنت تماما، يقال أن الإنسان الغائب بحواسه تعيده صفعة إلى رشده، وهذا ما حدث.

---

(1) إنه خطأي.

(2) لقد قاموا بقتلهم.

(3) نتمنى أنهم لم يفعلوا.

(4) اهدأي... سيجدوننا إن استمريتِ بالصراخ.

هدأت كليا، صوت نهنهة فقط ما كان يصدر عنها.

وقفت ونظرت حولي، أين سنذهب الآن، لا أملك بوصلة، لا معدات، أرحنا ظهورنا من الحقائب فور وصولنا أرض القبيلة.

كيف سأتصرف بوجود هذه المجنونة، سيزيد عبئي، نظرت ناحيتها: ستموتين هنا الآن، حاولت تحذيرك مرارا وتكرارا، طلبت منك أن لا تسافري، لكن العناد دفعكِ لمحاولة محوي من حياتك، هل تخيلتِ أن أستجيب لرغبتك في الاختفاء وقتما شئت، وأن أحضر وقتما تريدين، لستُ جنية في مصباح علاء الدين تستحضريني بمسح الفانوس، أنا كيان بأكمله بفعل رغبتك.

استنفرت، ووقفت على قدميها صارخة فيّ: لن يحدث ذلك يا غبية، لن أموت هنا، لن أموت بهذه السهولة.

أمسكت برسغي وجرتني خلفها، تساءلت كثيرا من أين أتت بكل تلك القوة فجأة.

عوالم متداخلة، طبقة هشة تخبئ تحتها حمم بركانية تخشى ثورانها بغتة فتصهرك.

لمستها... صهرتني، انتفضت بعد قطع مسافة قليلة، إلى أين تأخذينني.

- We will back to hotel.[1]
- How?
- سيرا على الأقدام، لن يكون بالطائرة حتما، استطردت بتهكم.
- أعلم أننا سنسير على الأقدام، أقصد كيف نعود ونحن لا نعرف أين نحن أصلا؟ بالإضافة إلى أن أفراد القبيلة يبحثون عنكِ، ليس من الحكمة التوغل في غابة لا نعرف عنها شيئا.
- جبانة أنتِ، كيف لم أنتبه لذلك، شجعتني للسفر إلى بريطانيا في البداية ثم إيقافي عن مرافقة ماري والفريق، سخرتِ قواك كي تتحكمين بي عن طريق زرع الخوف داخلي، وبث سم التوجس في خطواتي لتحبطيها، خشيتِ تميزي وتفوقي عليكِ، نعم هذا ما حدث، غيرتك مني دفعتكِ لمغادرة الدفتر إلى حياتي الواقعية.

(1) سنعود للفندق.

- استفزتني اتهاماتها: جبانة! أنا من أنقذ حياتك من الموت قبل قليل، وأحاول بكل ما أوتيت أن أنقذ حياتك من الطوفان القادم وتتهمينني بالجبن!
- أتظنين أني لم أراقبك طوال مدة مكوثنا هنا؟

كيانك هذا ليس إلا بالون يخفي بين ثناياه جسدا متهاويا يقف على قدميه بفعل الصدفة ليس إلا، اقتربت مني حتى شممت رائحة عرقها: هل عانيت من إسفافي وتجاهلي لكِ يا بائسة!

- دفعتها للخلف حتى سقطت على ظهرها: مجنونة.
- قد أكون لكني لست جبانة.

كيف يحدث بعد أن تبذل كل ما أوتيت من معرفة وبكامل تجاهلك لمصلحتك ولنفسك حتى تساعد شخصا وتحافظ على راحته وحياته أن تتهم بالغيرة منه، ومحاولة هدم حياته، مع أنك تحاول بناءها.

لم نتبادل الحديث بعدها، كأننا لسنا في نفس المحيط، من يشاهدها الآن وهي على هذه الصورة وبهذه الوضعية يظنّ أنها ساحرة، شعر قصير أسود، ذقن دقيق، خدود بارزة، عيون واسعة، طول فارع، نعم هذه كلها صفات ساحرة.

- هل تمارسين السحر الأسود؟
- لو كنت أمارسه فلن أهدره على جبانة مثلك.
- الآن جاء دوري: هل أصبحتِ تعانين عقدة النقص التي تدفع بك لتتعاملي معي بكل هذه العدائية! يعني هل لتخلي والداكِ عنكِ دور في توريثكِ كل هذا الحمق والجنون، أم أنها مسألة شخصية بيننا، أأذكرك بجبنكِ الذي دفعكِ لمغادرة منزل إليزابيث بعد أن طردكِ ابنها شر طردة، فمضيتِ بكل أنانية دون حتى أن تودعيّها!

صماء أصيبت بالخرس، اتخذت وضعية الصنم، طول طريق عودتنا لم توجه لي أية كلمة، لم تنظر في وجهي، لو استدعى نظرها ناحيتي سلطته على أي جسم قريب مني.

غضبها كان واضحا، أظن أني وجهتُ لها طعنة في قلبها مباشرة.

شقت طريقنا في الغابة كأنها أقامت هنا من قبل، قد تكون روحها السابقة كذلك، أما تيتانيا فأنا أعلم كل صغيرة وكبيرة عنها، حاولت تخفيف التوتر والحديث عن حيوان الديصور[1] الذي

(1) حيوان يعيش في أستراليا وجزيرتي تسمانيا وغينيا الجديدة القريبتَين منها، يشبه ابن عرس والدلق، حيوان جرابي من الثدييات، يتراوح طول الديصور

صادفنا في طريقنا، لم تكن تسمعني، لم تكن تراني، كنت غير مرئية، والآن أنا بالنسبة لها غير موجودة، استوقفتها نباتات الأوركيد، رأيت في عينيها دموعا محبوسة، قهرا مكبوتا، تشكّل بقبضة اعتصرت الزهرة بين أصابعها حتى اصطبغت بلون الدم.

خرجنا من الغابة إلى طريق ترابي تصطف على أطرافها سيارات جيب للسياح، هرولت ناحيتهم، بعد أن اتفقت مع المرشد على اصطحابها، نظرت إليّ، تعدتني وركبت في السيارة.

لم يكن الأمر يسيرا أن تفقد أصدقاء لك حتى وإن لم تلتقِ بهم إلا منذ وقت قليل بكل هذه الوحشية، لأن إنسانيتهم اقتضت إيمانهم أن لكل إنسان حقه في الرعاية، حق في حياة ترفع من مستواه العقلي في أن يُعامل بكرامة.

لم يكن ذنبنا أن هذه الشعوب تؤمن بمعتقداتها، أنها تقدس طقوسها بحرية، قد تكون الحرية من وجهة نظر شعب انتهاك حقوق شعب آخر، كل له وجهة نظره التي تقنعك.

البالغ من ٢٥ إلى ٧٥ سنتيمتراً، منها ٢٠ إلى ٣٥ سم يشكِّلها الذيل، لون فرائها أسود أو بني، وتتخلَّله عادة بقعٌ بلون مختلف. أما أنفها فهو زهريُّ اللون وطويل نسبيًا.

لماذا اقتحمنا حياة هذه القبائل وحاولنا فرض مدنيتنا عليهم؟ هل نؤمن بحقهم في الحصول عليها، أم أننا نرغب بفرض سطوتنا وسيطرتنا عليهم لنصبح ولاة أمر، حتى وإن كانت الطريقة غير مباشرة!

كمثل إنسان يحيا في بيت خشبي، وآخر يصر على أن يمنحه قصرا في وسط مدينة، هذا يعيش حسب رغبته وأفكاره وراحته، يؤمن يقينا أن طريقته مثلى، والآخر يعانده ويحاول تغيير كل أفكاره لأنه يؤمن بأنه الأصح.

ماري، جون وتوماس قتلتهم إنسانيتهم، بعد أن تم سلخ جلود رؤوسهم، أي عذاب تلقوه بعدنا، أية وحشية مارسوها بحقهم!

ظنت تيتانيا أنهم سبقونا للفندق، لكن يد الموت سارعت بقطفهم، لم يمهلهم أفراد القبيلة كي يهربوا، قطعوا عليهم الطريق، بدت أعراض التعذيب واضحة على أجسادهم كما أخبر طبيب التشريح تيتانيا.

أعادتهم البعثة الأمنية التي انطلقت إلى موقع القبيلة فور نقل تيتانيا الحادثة لهم، حيث وجدت جثثهم معلقة على أشجار قريبة من الجبل وقد مثل بها أسوأ تمثيل.

لم أقو على النظر إليهم عكس تيتانيا، رافقت جثامينهم حتى الطائرة، لم تذرف دمعة واحدة، احتفظت بوضعية الصنم.

الليل ثقيل، جاثوم على صدر النوم، حقائبها في زاوية الغرفة، ستغادر أخيرا يوم غد في منتصف النهار.

الفقد يتسع في صدري، روحي تحترق، كان بإمكاني مساعدتهم جميعا، رد فعلي السريع أنقذ تيتانيا المجنونة وحدها، لأنه لم يحن وقتها بعد، الويل لها.

- لم يكن بإمكانكِ مساعدتهم.

وأخيرا قررتِ الحديث معي؟ قفزت إلى جانب سريرها، تواجدها هكذا أمامي في الظلام أيقظ الرعب في أحشائي:

- ظننت أننا أعداء.
- لم نكن ولسنا كذلك، قد يكون موتنا جميعا عداكِ هو ما دفعني للحقد عليكِ، أنتِ المرأة الجبانة التي أوجدتها دون

تخطيط تبقى على قيد الحياة، في حين نموت جميعا هنا، على أرض غريبة بطريقة وحشية.
شعر جسدي انتصب كليا، ونسمة هواء شديدة البرودة لفت أسفل رقبتي وغادرت.

-هل تنوين العودة لتلك القبيلة للثأر؟

- ضحكت باختناق، لستِ جبانة فقط، بل وبلهاء أيضا، لا أعلم ما هي الحسابات التي يقوم بها الموت في تصفيتنا، يقبض أرواحا جميلة مخلفا أرواحا لا تستحق الحياة.
- مللت إهانتك لي، هل قتلت لكِ عزيزا في حياة أخرى، من أين أتيتِ بكل هذا الحقد! سحقا لكِ.
- لم تفعلي، مثلك لا يمكنه أن يؤذي حشرة، لكنه الطبع البشري الأناني، تساءلت كثيرا منذ عرفت أنك الوحيدة التي ستبقى، لماذا أنتِ؟ لما لا أكون أنا أو حتى ماري، جون اللطيف، أو حتى توماس، لم أجد إجابة، أخبرتك... للموت حساباته، نستطيع الهروب من عائلاتنا، من آلامنا، من أوجاعنا، نهرب من ماضينا، الموت فقط من لا يمكننا الهروب منه، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

- لكني سأختفي فور موتك، الخيط الفضي الذي يربطنا سينقطع، ولأصدقكِ القول... أنا خائفة أن أتوه بعدكِ.
- لا يهمني مصيركِ، ما دام مصيري محسوما.
- كيف تستطيعين أن تفعلي بي هذا؟ تخلقين فيّ الشعور بالحياة بعد أن كنت دون وعي مجردة من المشاعر، ثم تتخلين عني بكل هذه السهولة؟
- حاولت بثكِ حزني، ووجعي، حاولت أن أخفف حملي بتقاسمه بيننا، لم يكن في نيتي أبدا أنكِ ستتخلين عن حياتك لتسكني حياتي.

لو كنت أعلم أني سألتقي إليزابيث لم أكن لألجأ إلى مهووسة مثلك، هل تعلمين أن المرأة تدفع نصف عمرها إن لم يكن كاملا مقابل عثورها على شخص يشعرها بالأمان، وأنا دفعته كاملا وعثرت على إليزابيث، لقد استحقت كل ثانية وكل مسافة قطعتها في سبيلها.

وددت لو أني أحتضنها، حاولت الاقتراب منها، وكأنها شعرت بذلك: لا تفعلي، لا أحتاج لكِ بعد الآن.

قد أكون غفوت القليل من الوقت، تلك الساحرة سيطرت على تفكيري بالكامل، غادرت الفندق، لكني لم أبتعد... فور وقوع الزلزال الأول، تراجعت خلاله الأمواج إلى عرض البحر، تهامس السكان بينهم أنه أمر اعتيادي، أنا الوحيدة التي كنت أعلم أنه ليس كذلك.

الموت في السماء ينتظر وصول المد لينقض على الأرواح التي ستنهي رحلتها اليوم فوق هذه الأرض، لم يكن قد انقضى الصباح بعد عندما سمعت انفجار قنبلة في منطقة الشاطئ، ثوان قليلة فصلت الانفجار الثاني عن الأول، صراخ مزلزل مخيف صادر عن سكان المنطقة، نظرت لأسفل، الرعب كلمة بسيطة أمام هذا الحصاد الجماعي للأرواح، موج أعلى من ٢٠ طابقا يبتلع المكان بأكمله، يجرف أجسادا كأنها دمى ليست ملكا لنفسها، البحر غضب فجأة، وقرر أن يجهز على اليابسة ومن عليها، القيامة قامت، أشجار بأكملها اقتلعت، وهناك من علق جسده بين أفرعها، كيف يمكن وصف مشهد دام!

كنت قريبة من تيتانيا عندما جرف الطوفان جسدها، ضربه كاملا في جدار الغرفة، ثم دحرجه داخل الماء، محاولتها كتم أنفاسها

والسيطرة على جسدها باءت بالفشل، علمها المسبق بموتها لم يمنعها من مقاومته بكل ما أوتيت من شجاعة وحب للحياة، ألصقتها المياه في سقف الغرفة، اندفعت إلى رئتيها، تهشم وجهها بفعل تدفق الأخشاب مع المياه من النافذة، مدت لي يدها برجاء كي أساعدها، جحظت عيناها وأرخت يدها... طاف جسدها، تركتني دون وداع، دموعي تسابقت في السقوط، وبدا جسدي خفيفا، ارتفعت دون سيطرة مني لأعلى، شاهدت في الأسفل أناسا يحاولون الهروب من الموج، قليل جدا من الأحياء.

تشوهت أجساد، وجوه، شاهدت شخصا يصيح من فوق نخلة بعد أن صعد إليها هاربا، عائلات تركت بيوتها على عجالة علها تحتفظ بحياتها، أمهات فقدن أطفالهن، لم تبق بيوت، لم تبق عائلات، تبخر المكان كأنه لم يكن.

أجهزت الحياة على تيتانيا قبل أن يفعل التسونامي.

- اااه يا وجعي، صرختها دوت في أرجاء المنزل، علا عويلها: لماذا تخطاني الموت إليك، ليته اختارني وأطلقكِ، ليت الوجع الذي خلّفه في صدري عليكِ يخنقني لألحق بك.

اللعنة عليه، لم يترك لي عزيزا إلا وخطفه، لم أعلم أن يقيني بعودتك سيجر لي جزءا منكِ فقط، أيها الرب: خذني إليك. أريد الموت.

- أمي، هل أنتِ بخير؟

جورج بلباسه العسكري، وحقيبة سفر بيده، كان ينظر إليها من خلف باب الصالة.

تمت